أميرة في زمن الجواري رواية محمد

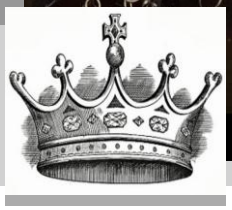

إصدارات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: لحظة ـ راية

اسم المؤلف: محمد عواد

رقم الايداع:17946 /2019م

ترقيم دولي: 978-977-6663-60-2

حقوق الطباعة محفوظة للدار وللمؤلف

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزته

في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أي شكل من الأشكال

المعروفة حاليا أو التى ترد مستقبلاً دون إذن خطي مسبق

المراسلات:

دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

المقطم الهضبة الوسطى الحي الرابع منزل رقم 5275 شارع عماد مصطفى

موبايل:01144059975 ت: 27304004

المراجعة مكتب الموهوب (أ .د.حازم القبيصي)

الإهداء

لامرأة كتبت الأقدار عليها حزنا لم تحزنه امرأة قط، لامرأة أعطت، ووهبت، وبذلت، منذ يوم مولدها حتى نادتها الأرض، لامرأة عانت، وصبرت، لامرأة قوية، قوة كل أهل الأرض، لامرأة اختلفت عن كل النساء في كل شئ، من المهد الي اللحد، لأمي الحبيبة، الصابرة، الرقيقة، القوية، الحنونة، أهدي لها كلماتي، ولن يجزيها، ولو سطرتها فوق خطوط الطول، ودوائر العرض، أهدي لها روايتها، وأهديها لكل من أراد أن يعرف امرأة اختلفت عن كل نساء الأرض، لكل من أراد أن يقرأ عن أميرة أهل الأرض

محمد عواد

الفصل الأول
" المقدمة والنشأة"

اسمها لواحظ محمد مصطفى سلمان, كنت أناديها "لحظة", كانت حبيبتي.

كانت امرأة ترفل في قلبي مثل بلقيس, لها طهر مريم, وبلاغة الخنساء, وعلم عائشة, ونقاء فاطمة.

امرأة تدللت, وعانت, وصبرت, امرأة لا تشبه أحدًا من النساء, امرأة لا تشبه كل الأشياء.

امرأة عاشت ورحلت, ولا أراها إلا سيدة النساء.

"زبيدة", و"ربيعة", شقيقتان من بيت "آل ضمّه" في شرق النيل, امراتآن بسيطتان طيبتان, تزوجتا في قريتنا, تزوجت الأولى "زبيدة" من "رضوان حسين كريم", وأنجبت منه "زهيرة" طفلة عاشت حزينة وماتت حزينة, بعضهم يبتليه الله من مهده إلى لحده, - سنعود إليها لاحقًا-

"اللهم لا راد لما أردت".

طلق "رضوان" "زبيده"

تزوجها "عبد الإمام", وأنجب منها "أحمد عبد الإمام".

وتربت "زهيرة" في بيت أبيها حتى السابعة من عمرها.

"ربيعة "تزوجت الشيخ "مصطفى حسن سلمان, " أنجبت "محمد" و "احمد" و "محمود" ثم فقدت بصرها, وهي تحمل طفلة في أحشائها سميت "نفيسة".

ماذا فعلت شقيقتها "زبيده"؟

أعطتها طفلتها "زهيرة"؛ لتكون عونًا لها على مشقة الحياة, وعجز العمى قبل أن تنفصل عن زوجها "رضوان".

"زهيرة",طفلة أدارت بيتًا فيه أربعة رجال وأم كفيفة وطفلة رضيعة, ما أصعب أن تستيقظ الأطفال على أعمال تعجز النساء عن فعلها, ما أسوأ أن تفقدك الدنيا لذة الطفولة وبريقها – رحمها الله – سنة, اثنتان, ثلاث, كبرت "زهيرة" ونضجت واكتملت أنوثتها, وبثقافة الصعيد لا يليق بأنثى في تلك المرحلة أن تعيش بين أولاد خالتها الذكور ولو رضعوا من ثدي واحد, وبدأت المشكلة ووجدوا الحل, الإبن الأكبر "محمد" يتزوج "زهيرة" على اعتبار

أنهـــا مكافـــأة نهايـــة خدمـــة؛ تزوجهـــا "محمـــد مصـــطفى" ولكـــن "محمـــد مصطفي:

- يا ابا انا عاوز اجوز من قنا.

- ليه يا ولدي؟؟؟

مـــا انـــت مجـــوز, ومرتـــك حامـــل, بنيـــة خالتـــك شـــايلانا العمـــر كلـــه يـــا ولدي.

- لا يـــا ابـــا أنـــا عـــاوز قناويـــة علشـــان الوجاهـــة, أنـــا مـــش أقـــل مـــن الناس اللي متجوزة من البندر.

- يا ولدي تبقى دي آخرتها مع البنية اليتيمة؟

- يـــا ابـــا مـــاهي قاعـــدة تخـــدم فـــي البيـــت ونجيبـــوا القناويـــة زي الكبرات يا ابا.

- ودي منين يا ولدي؟

- دي أخـــت الحاجـــة اللـــي ولادك "احمـــد" و"محمـــود" مـــأجرين شـــقة في بيتهم في "قنا".

"مصطفى" - يا "محمد" ما تظلمش بنية خالتك اليتيمة.

- حاجوزهـــا يـــا ابـــا, واهـــي قاعـــدة فـــي البيـــت حنطيـــروا وراهـــا حتروح فين يعني, مَرَه زي مَرَتين.

ويتـــــزوج "محمـــــد", "خضـــــرة", وتحمـــــل فـــــي خـــــالي الحبيـــــب "منتصـــــر"ولكـــــن.. قبـــــل أن تلـــــده يـــــأتي قضـــــاء الله ويرحـــــل "محمـــــد مصطفى" وكأن السماء تستدعيه لتسأله عمّا اقترفت يداه,

خرجـــت هائمـــة تحمـــل كـــل خيبـــات الـــدنيا, ضـــاع شـــبابها وطفولتهـــا وأجمـــل أيـــام عمرهـــا هبـــاء منثـــورًا, خرجـــت مطلقـــة يتيمـــة لا ســـند لهـــا إلا أمهـــا التـــي ترملـــت أيضًـــا "زبيـــدة" وشـــقيقيها "إبـــراهيم رضـــوان" و"أحمد عبد الإمام", ذهبت لأمها, وهل أحن على المرء من أمه؟!

لكن من أنجبت "زهيرة"؟

أنجبت طفلة شديدة الحسن جميلة في كل شي

أنجبت "لحظة" الأميرة في زمن الجواري

استقرت "زهيرة" مع أخيها "أحمد عبد الإمام" وانتزعت ابنتها منها؛ كي تتربي مع أهلها, انتزعها من انتزعوها منذ أعوام من أهلها والقوا بها بعد أن أتمت مهمتها, لكن يقينا لم تكن "الأميرة الحزينة" سوف تجد ما وجدته من حب وحنان وأبوة من عمها الشيخ "محمود" -رحمه الله وطيب ثراه-, ذاك الرجل الصالح النقي الطاهر كان لها ولأخيها "منتصر", نعم الأب ونعم الأم الرؤوم

دوما أسأل نفسي: في أي منازل الجنة سيذهب هذا الشيخ التقي النقي بما أعطى وبما وهب؟

عاشت بالطبع "زهيرة" منكسرة تجتر عذابات الماضي, وجرح الأهل, وألم الفقد لأهلها وابنتها في بيت أخيها "أحمد" الذي كان يقينا قبل كل شيء بيت زوج أمها, ويقينا ما أصعب على المرء أن يحيا في بيت زوج أمه ولو كان في الجنة, رغم أن أخيها "أحمد" – رحمه الله – كان أخًا كريمًا معها, لكن في نهاية المطاف هو بيت زوج أمها, وليس أباها.

"حسن سلمان" وهذا الرجل له قصة طويلة لها علاقة بأمي "الأميرة الحزينة" لأنني تزوجت حفيدته, نبقى في "مصطفى" وأخيه "حسن سلمان",

انتقل "محمد مصطفى" إلى بارئه هو أعلم بما له وما عليه ولكن..

"حسن سلمان "شقيق "مصطفي" في شبابه اختلف مع أخيه, ولا أعلم فيما اختلفا,

كان الرجُلان أمهمها أيضا من الشرق؛ يعني "ربيعة" و "زبيدة" أبناء أخوالهما, غادر الأصغر "حسن" شقيقه إلى أحد أخواله بمحافظة "كفر الشيخ", ونحن نعرف جميعًا أن أهل "قوص" بارعون في التجارة, ويرحلون إلى أي أرض تزدهر فيها تجارتهم, ذهب إلى خاله وكان يدعي "علي" في إحدى قرى محافظة "كفر الشيخ", واستقر هناك وتزوج وأنجب ثلاثة أولاد مثل أخيه وبعضًا من الفتيات, وانقطعت صلته بأهله وأخيه فترة طويلة من الزمن

من الذين أنجبهم؟

أنجب ابنه الأكبر وأسماه "سلمان"

- على اسم أبيه-, وتذكروا هذا الاسم جيدًا وابنًا أوسطًا أسماه "مصطفى"

– على اسم أخيه-وابنه الأصغر أسماه "حسن" -على اسمه-, أدركت أنا هذا الرجل, كان – رحمه الله – لا يفرق شيئًا في الشبه عن ابن عمه الشيخ محمود.

يقينًا الحنين دومًا ينتصر على الفرقة والخصام؛ فهو في مهجره نسي الاختلاف, وأجبره الحنين على تسمية أبناءه بأسماء من يحب ويشتاق.

نعم الخلاف شيء والحب شيء آخر,

-ليتنا نتعلم

-.المهم عمنا "حسن" هذا قتله الحنين لأهله وشقيقه؛

فاحضر ابنه الأكبر"سلمان" وجاء القرية زائرًا

رحب به أخوه وطلب منه أن يعود ويحضر أبناءه, ويعيش بين أهله, اعتذر الرجل؛ لأن له من الحياة هناك ما لا يريد أن يفسده؛ فعرض عليه أخوه وأبناؤه أن يترك ابنه "سلمان" هنا, وكان صبيًا صغيرًا؛ كي يعلموه ويربوه, ولا أعلم إن كان فعلهم ذلك حتى لا ينقطع اتصالهم به, أو معاونة على فاقة أو ما شابه ألَمَّت بأخيه, لكن يقينًا كانوا أنقياء النية والهدف.

وافق الرجل أن يترك ابنه يربيه أخوه, ويعلمه؛ لأنه يقينًا كان لن يجد تلك الظروف من العلم والثقافة في مهجره.

تركه وغادر دونه؛ ليتولى عمه وأبناء عمومته تربيته وتعليمه, حتى أصبح رجلًا متعلمًا ومثقفًا وعمل مدرسًا بمدرسة "طوخ" مع من كانوا في ذاك العهد.

بثقافة الصعيد البنت لابن عمها يأخدها من فوق الحصان؛ فقطعا ومن الطبيعي أن يتزوج سلمان من الجميلة ابنة عمه "نفيسة"

ابنة الشيخ "مصطفى" وأصغر أبنائه, كانت الفتاة حلم الكثير؛ لحسنها ورقيها وما شابه, لكن هناك من يعترض طريقهم, ولا سبيل إليها إلا أن يغادر هذا الفتى من حيث أتى.

حكي لي الشيخ "عبد الرازق" وأمي معًا وعلى عهدتهما -رحمهما الله -عن تلك المؤامرة للإطاحة بالرجل؛ كي تخلو لهم فرصة الزواج منها.

رحم الله الجميع, وضعوا في حقيبته بعضًا من الأشياء التي يجرمها القانون وأبلغوا عنه؛ لتكون سبة في جبين بيت العلم والدين, تحمّل وزرها "محمد مصطفى", أسرعوا وأخرجوه من مأزقه ناصحين إياهم بأن يرحل هذا الفتى غير مأسوف عليه.

رحل الرجل كما أرادوا -غير مأسوف عليه-, رحل بالآمه وأحزانه, رحل يحمل خيباته, وإلى الله مشتكاه وأوجاعه؛ فلا صديق اتقى الله فيه, ولا قريب كان سندًا أو إليه المشتكى.

رحل الرجل وتركهم يهنأون بما فعلوا وما دبروا.

لكنهم نسوا أن أقصى تدابيرهم ليست إلا نفاذا لما أراد الله, نسوا أن الله مُطّلع على ما فعلوا, لكن دومًا تعود المكيدة فوق رأس كل ظالم.

لقد كان رد الله فيما فعلوا مؤلمًا موجعًا قاسيًا قسوة ما فعلوا وما دبروا.

إنهم في دار الحق ونحن في دار الباطل, لا أعلم كيف كانت خواتمهم, ولا كيف إلى الله آلوا؟

هم في دار الحق ونحن نحيا في دار الباطل والبهتان, لكن كل ما أعرفه أن ندعوا لهم جميعًا بالمغفرة والعفو؛ فنحن إن كنا نعرف فعالهم, فنحن لا ندري شيئًا عن رحمة الله تعالى.

-فليرحمهم الله-.

عاد الرجل إلى أبيه وأمه وتزوج ابنة خاله وأنجب منها ابنته, ثم توفاها الله هذا العام, ولكن..أقعده المرض والحزن ورحل تاركًا طفلة يتيمة وزوجة أرملة بعد عامين من عودته, وكأن الأحداث تتشابه مع الأخين "مصطفى" و"حسن".

تزوج أخيه الأوسط "مصطفى" من أرملته لتنجب له ولدين وأربع أناث, قدر الله لي أن ينعم عليّ بالزواج من إحداهن, رحم الله من غادر وحفظ من بقي, وحفظ لي زوجة طيبة نقية أدامها الله سترًا وملًاذا وسندًا.

انقطع "حسن" عن إخوته بعد ذلك, إلا أنه عاد وحيدًا بعد ذلك, أراد أن يلقى ربه بين أهله وأخوته قبل رحيله, لكنه لم يجد ما يليق بنهايته؛ فآثر العودة ومات حين وصل إلى مهجره.

هكذا تنادي الأرض على من تريدهم, لكن الأغرب والأعجب أن يجند الله عبدًا من عباده مثلي بعد قرن من الزمان ليبرئ الرجل مما قيل, ويعلن نقاءه على الدنيا كلها.

هكذا هو الله سينصركم ولو بعد حين من الزمن؛ فلا تقنطوا من رحمة الله –تعالى- أبدًا, ويا أيها العابثون بأقدار الناس تذكروا أن كيدكم أمام مكر الله عبث؛

فاتقوا الله في أنفسكم قبل غيركم.

يقينًا أنا ذكرت قصة "حسن" تمهيدًا لأشياء سوف أذكرها في حياة تلك السيدة العظيمة أميرة الأحزان "لواحظ"

الفصل الثانـي

"طفولتـها"

مكثت "الأميرة" في بيت أبيها يشاركها اليتم شقيقها والذي وُلد ولم تَرَ عينه عين أبيه, مكثت بلا أب لها ولا أم لها؛ أباها رده الله إليه, وأمها ردها أهلها إليهم.

سخر الله إليهما الأب الحنون والأم الرؤوم الشيخ "محمود مصطفى" لم يفعل الرجل ذلك إلا عن يقين برسالة اختصه الله بها, وكأن الله يُهديه يتيمين يكفلهما, وليس يتيمًا واحدًا, بل أنعم عليه بعد فترة قصيرة بستة أيتام أُخَر, وكأن الله أراد بهذه المكرمة أن يرزقه رفقة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليس كإصبعي الإبهام والسبابة, ولكنه أراد -جل وعلا- أن يستأثر الرجل بكل أنامل رسول الله –صلى الله عليه وسلم-, عرفت قدر ما عرفت لم تَرَ عيني مثل عطاء هذا الرجل وبذله لأجل غيره وصبره وكرمه.

حبه لم أَرَ مثله قط, إنكارٌ لذاته ليس له مثيل, وكما قلت من قبل دومًا أسأل نفسي: في أي منزلة في الجنة سوف يكون مآله وآخرته؟

أخشى ألا ترقى منزلتي لأن أراه في أهل الجنة - هذا إن كتب لي الله الجنة - أنا لا أعلم تفاصيل مهدهما وطفولتهما لكن أعلم أن الرجل تكفل بكل شيء, بكل شيء.

تكفل بأُبُوَّةٍ مطلقة وحنان رائع وعطاء مغدق, بل تكفل بالأمومة وما حوت, تكفل الرجل بكل شيء.

كانت طفلة لا تنافسها طفلة في بلادها حسنًا وجمالًا ورقيًا, كانت تشبه عرائس الحلوى يحكي لي: كانت تلتف الفتيات اللاتي كانت من عمرها حولها تتعجب من فستانها, من رقتها, من حديثها, ومن حسنها.

كانت طفلة تختلف يقينًا عن قريناتها في كل شيء.

كانت طفلة من مكان آخر, لم تجرب شقاءًا ولا عناءًا.

تربت في القرية كأهل المدن, وكان الرجل عوضًا عن كل شيء دللها كما لم يُدلل أحد من قبل, أعزها من ذل يتمها وفجيعة ظلم أمها وابتعادها, اشترى لها من الذهب ما غلا ثمنه وعلا قدره, أخبرتني -رحمها الله- أنه اشترى لها في صبوتها ما يقرب من ألف جرام ذهب رغم بساطته وطهره.

دللهـــا الرجـــل كمـــا لـــم يـــدلل ابنتـــه مـــن صـــلبه, أو كمـــا لـــم يمهلـــه الأجل ليدللها مثل شقيقتها؛ فرحمة الله عليه حقًا.

لـــيس وحـــدها ولكـــن نـــال شـــقيقها وشـــريكها فـــي اليـــتم مثـــل مـــا نالـــت هـــي؛ فرحمه الله.

كبـــرت "الأميـــرة الحزينـــة" وأصـــبحت طفلـــة القريـــة, ولـــم يجـــرؤ أحـــدهم مـــن التقـــدم لهـــا أو خطبتهـــا؛ فلـــن يتحمـــل أحـــدهم أن يهبهـــا مـــا وهبهـــا أبوها.

ويتقـــدم لخطبتهـــا أحـــدهم مـــن الشـــرق, وكـــان قريبًـــا لهـــم مـــن أخـــوال آبائهـــا, وههنـــا تبـــدأ الـــدنيا فـــي تقلبهـــا, وتزحـــف أفعـــى الأحـــزان كـــي تلاحقهـــا, ولا تتركها إلا وروحها بين يدي بارئها.

هنـــاك أنـــاس يســـتكثر الحـــزن علـــيهم الفـــرح, أنـــاس خلقـــوا للحـــزن لـــيس أكثر -رحمها الله-

الفصل الثالث

"الشِّقاق"

تزوجت الرجل لتكتشف أنه كان سِكِّيرَا لا خلق لديه ولا دين, وفي غضون شهور قليلة انفصلت عن الرجل وعادت كما ذهبت, لكنها عادت وقد انطفأ ضياؤها وذهب بريقها.

عادت بآلاف الآلام والأحزان, عادت كسيرة حزينة كما سبقتها أمها أول مرة.

- رحمها الله - كانت أول تجربة قاسية تحياها بعد عيش رغيد وبيت سعيد.

عادت ولم يتركها أبوها تعركها رحى الأحزان, ولا أخيها - رحمه الله-, ولا أمها ولا عمتها, الكل واسى الطفلة الجريحة ما أمكنه ذلك, لكن دومًا المصائب لا تأتي فرادى.

تخرج شقيقها الشاب الوسيم الجميل الأنيق "منتصر" من الجامعة أنهى كلية الحقوق وساعده أبوه في الالتحاق بوظيفة جيدة وهكذا الرجل سيجني ثمار عناء جهده وتعبه بأول أبنائه "منتصر" لكن حدث ما لم يكن في الحسبان أو الخاطر.

ارتبط الشاب الوسيم بزميلة له في الجامعة من الأقصر, وطالب أباه بخطبتها ليرفض الرجل رفضًا قاطعًا لأسباب لا مجال لذكرها, ويحتدم الخلاف بينهما وكل له رؤاه, ويجد الشاب الوسيم نفسه في حيرة من أمره؛ فبره بأبيه يمنع عليه عقوقه, ورجولته تملي عليه ألا يتخلي عن فتاته, وتولّت الطفلة الجريحة رأب الصدع بينهما؛ فكلاهما لا يصحّ بأي صورة من الصور اختلافهما؛ فهما عمودا الدار, وهما سند الجميع.

وظلت الأميرة الحزينة الجريحة حيرى بين أبيها وأخيها, تحاول أن تطيب خاطر أبيها على أخيها, وفي نفس الوقت مقتنعة بما يريده أخوها, وملأها الحزن على حزنها؛ فلو قدر لهما الاختلاف لانهار كل شيء, وكانت من الحكمة أن تقنع أخاها أن يذهب للحاج "توفيق عبداللاه" ويقنعه أن يتدخل لرأب الصدع بينه وبين أبيه, وفعلها الرجل؛ اقتنع صديقه وجليسه بالموافقة, ووافق الشيخ على مضض مشترطًا أن يتزوجها, لكن لا يطلب منه الوقوف بجواره بأي شكل كان, وكان ذلك يكفيه.

فرحت الطفلة الحزينة بأول بشائر نبذ الفرقة, ما عساه يفعل أخوها وهو على أول أعتاب الحياة.

هل تترك أخاها تتلاطمه الأمواج وتتقاذفه, ويصغرأمام فتاته وهو الذي لا يملك درهمًا ولا دينارًا؟!

ظهر معدنها النقي, وجمعت ما وهبها أبوها من حلي وما حصلت عليه من مهرها, وخلسة أعطته لأخيها من غير أن يعرف أبوها, وقالت لأخيها:

_ روح بيعه واتجوز يا "منتصر", وما تقولش لأبوك؛ لإنه ماكنش ينفع افرط في حاجة هو جابها ليا.

أصعب شيء على النفس أن تفرط في أمانك وأنت تحتاج إلى الأمان, كان من الممكن أن تتصرف هذا التصرف وهي بنت, لكن عظمتها أبت عليها أن تترك أخاها, ولو على حساب كل شيء – رحمها الله –, وأصبحت لا تملك إلا أقل الحلي.

تزوج "منتصر", وأما هذا التناغم والألفه بين الرجل وأبيه ظل فترة طويلة لا يتحرك إلا زحفًا كالماء الراكد, رغم محاولات الفتي لإذابة تلك الرواسب تمامًا, لكن لم تذب تمامًا إلا بعد مرض الرجل – رحمه الله –, وما فعله ابنه معه تفانيًا في خدمة أبيه؛ ليشتشعر الرجل مرة أخرى أن له ولدًا يحبه ويرعاه ويبره قولًا وفعلًا, وإن لم يكن من صلبه.

أما هذا الموقف فخرجت منه شقيقته خالية الوفاض,

فقدت بيتها ثم مصاغها, يقينًا أعاد إليها شقيقها ما أخذه منها,

جنيهًا كل شهر, مرة تأخذه ومرات لا تفعل, هي كانت لا تشعر بالفضل على أخيها, هي ترى ما فعلت حقًا من حقوقه عليها.

بينما أخوها مشغول في تجهيزحياته والاستعداد لعرسه, كانت الطفلة الجريحة تحيا ما بين منزل أبيها ومنزل عمتها "نفيسه" والتي كان ابتلاؤها أعظم وأشد, كانت السيدة كلما أنجبت ولدًا يتوفاه الله حين يكمل عامه الثاني تحديدًا, وكأن الله أراد منهم شيئًا, وقيل لي أنها أنجبت أربعة عشر ذكرًا ماتوا جميعًا في عامهم الثاني.

ولم يكن يصح أن تترك الطفلة الجريحة عمتها؛ فكانت تمكث معها تواسيها تارة, وتخدمها تارة, وكان زوجها "حلمي أفندي" أيضًا رجلًا كريمًا في معاملتها والاهتمام بها, وربما كان يجد فيها ما حرم منه؛ فكان يحسن قدومها, ويبر وفادتها – رحمه الله –,

وكانت له شقيقة متزوجة من رجل في قرية أخرى اسمه "محمد سماني", وكان للرجل

سمعة وتاريخ في كل الدنيا, أنجبت منه ابنًا وحيدًا مدللًا اسمه "عواد" -سيكون أبي-, وكان من عائلة كبيرة وعريقة,

كان عواد ابن شقيقة الشيخ حلمي أفندي, وكان وحيد أمه, تزوج ثلاث مرات وطلقهن

قبل أن يبلغ الثلاثين, حتى قيل أن أول زوجة كانت وعمره اثنى عشر عامًا قبل أن يبلغ الحلم.

كانت "أمينة" تذهب لتزور أخاها "حلمي أفندي", ووجدت الطفلة الحزينة الجريحة هناك؛ فراقت لها لكي تكمل بها دلال ابنها,

وطلبت من أخيها أن يطلبها لابن اخته "عواد", وكعادة الناس حين تتقدم لخطبة أحد لا تذكر شيئًا عن مساوئه إلا القليل منها,

وفعلها الرجل رحمه الله الذي كان له رصيد من المودة والتبجيل عند أبيها الشيخ "محمود", وكان الرجل عليه أن يحسبها؛ فوجد ربما أن يكون حلًا عاجلا لنكأ جراحها, وكان اسم عائلته وأبيه مشجعًا على ذلك, لكن الرجل يعلم أن ابنته ستحيا وسط بيئة مختلفة عما تربت,

تدخلت عمتها وزوجها وأقنعا الطفلة الجريحة بمميزات الشاب, لكن الرجل الكريم والأب الحنون ترك لابنته الخيار؛ حتى يبريء نفسه أمام الله, إلى أن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن.

وافقت الفتاة, وما كان يشجع على الزيجة, أو يطمئن أن مهرها كان مائتان وخمسين جنيها, وكان

رقمًا يكفي لشراء خمس أفدنة في هذا الزمن؛ مما يوحي يُسر حال الرجل, وأنها لن ينهكها قلة ذات يده,

ولكن لم يكن هذا المهر إلا طعمًا لالتقاط هذه الحورية

إلى غياهب الجب مرة أخرى.

تزوجت الطفلة الحزينة من الرجل؛ لتحيا في عالم آخرلم تتعود عليه,

الرجل لا يقرأ ولا يكتب, وهي الشاعرة الحافظة لكتاب الله -تعالى- , وهي المثقفة القارئة البليغة, وكان ذاك أول الغيث.

كان الرجل مدللًا وحيدًا لأمه تخشى عليه من كل شيء وأي شيء.

وجدت نفسها في بيئة لا يسمع فيها إلا دوي البنادق وصوت الرصاص, في كل مكان بندقية, وهي التي عاشت وكان في كل مكان كتاب.

كان الرجل قد رحل أبوه, وكانت هناك آلاف المآسي من جرائم الثأر والقتل؛ فالجميع متحفز أن يقتل أو أن يُقتل.

ثقافة مختلفة كل الاختلاف عما تربت عليه.

لا أحد يعرف شيئًا عن نثر أو شعر, لا أحد يعرف الصلاة أو الصيام, لو سألت أعلمهم لن يخبرك حتى عن حروف الهجاء.

الأسوأ من ذلك أن خوف أم الرجل عليه جعلها تترك ميراثه لإخوته؛ حتى لا يخرج ولا يدخل؛ فيصيبه مكروه مما أصاب غيره؛ فساء وضع البيت ماديًا لأسوأ ما يكون.

التي خدعت باسم العائلة وتاريخ الأدب.

الفصل الرابع

"أبوّة رائـعة"

قررت ألا تستسلم, وأن تحمل على عاتقها أن تغير الوضع, وهي تعلم يقينًا أنها ستحرث في النهر, لكن بدأت الطفلة الحزينة أن تقرر حل مشاكلها بنفسها, وأن تغير واقعًا صعب التغيير.

بدأت أن تتمخض لديها الإرادة, وحقا أوجدتها, وصارت على نهجها حتى توفاها الله.

كانت دومًا تقاتل من أجل ما تريد بعزيمة صادقة, ولا تهدأ حتى تحقق ما تريد.

وضعت الأميرة الحزينة خطة لتغيير واقعها, ولأنها تعرف أن العلم أول شيء تغير به مفاهيم البشر؛ لم تستسلم ولن تتراجع, علمته الحروف الهجائية ثم الكتابة, وألحت عليه ليذهب إلى"كُتّاب", ولمن لا يعرف "الكتاب"؛ هو مكان لتعليم القرآن في مصر, -ربما يكون باقيًا إلى اليوم-, وذهب الرجل الذي أبهرته القراءة والكتابة.

أرسلته إلى "كتاب" شيخ وحيد ليس سواه في القرية, وأسفًا, كان الرجل من عائلة بينها وبين عائلته جحيمًا من الخلافات, وعلمت أمه أن ابنها يذهب لكتاب الشيخ؛ فذهبت إليه وانتزعته من بين رفاقه, والذي كان يفوقهم عمرًا وسنًا, واعتبرت أن ما فعلته "الأميرة الحزينة" دربًا من الانتحار؛ فكيف يتعلم عند الأعداء, مما يعرض حياته للخطر في شيء لا قيمة له وهو التعليم.

ولم تتراجع الطفلة الحزينة, صمدت حتى علمته القراءة والكتابة, ولو مبادئها.

ساءت الأمور شيئًا فشيئًا, الرجل لم يتحمل المسئولية من قبل, عاش في خير أبيه وعزوته, وأمه تخشى عليه من كل شيء, ابتاعه إخوته غير الأشقاء كل ما يملك "بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين", ابتاعت "الأميرة الحزينة" ما بقي لها من مصاغ, وأصبحت لا تملك شيئًا في هذه الدنيا إلا أباها.

الأب ذاك الرجل الذي يرهقني ذكره, أتعجب من عطاءه وأبوته وحنانه ليس مع أمي فقط.

ولكن هناك تسعة أيتام في رقبته يفعل معهم جميعًا ما يفعله لأمي؛ فمن أين كان له الوقت والمال والعزيمة, والصبر على تلك المسئولية المرهقة؟!

كان الرجل -رحمه الله- وهو الشيخ الجليل والمعلم العظيم جليس السادة, ومن له في الحديث الريادة, الأديب الفقيه العالم التقي النقي الذي كانت تنحني له الرؤوس إجلالًا وتكريمًا, يحمل لابنته فوق عمامته دقيقها وسكرها وزيتها وما طاب من حلواها وما تشتهي من فاكهة, ربما لم يرها أو يسمع عنها لا زوجها ولا أهله؛ فهي ابنة العز ومليكة القلب, ثم يغادرها, يقبض على كفها بمال يكفيها ويحفظ عليها عزتها وكرامتها.

كانت عمامته تصبغها بقع الزيت, وعباءته الدقيق, وكرامته يعز عليها حمل كل تلك الأشياء على رأسه مسافرًا من بلد إلى بلد؛ لينكأ جرح ابنته, ويسد جوعها ورمقها.

لم يحملها مسئولية اختيارها, ولكن ظل الأب الرحيم, والأم الرؤوم.

دومًا يرهقني ذاك الشيخ, من أي صفوة الملائكة أتى؟! وفي أي بقاع الجنة سيستقر؟! وماذا كان بينه وبين الله؛ ليغني فقره؛ فيعينه على صلة رحمه وقوت أهله -رحمه الله-.

ظلت "الأميرة الحزينة" تتشبث بالصبر, تقاتل من أجل البقاء, لن تسقط مرتين, ظلت عامين ولم يهبها الله طفلًا.

كان أبوها يكشف عن رأسه ويدعوا ربه متوسلا أن يهبها ولو ولدًا واحدًا يحمل عنها كبرها وعجزها, وكأن الله -جل وعلا- استحيا أن يرد يديه؛ ليدب في أحشائها جنينٌ يلبي الله به نداء أبيها.

هكذا بدأت الحياة, يفتر ثغرها, هي تحمل طفلًا؛ فكان ذلك كضوء شمعة في قاع البحر, شجعها أن تبصر ويحدوها الأمل من جديد, ويقينًا سيأتي يومًا يتغير كل شيء.

مرت الأيام صعبة طويلة قاسية, حتى جاء موعد تمخضها؛ ليأبى الجنين على الخروج, وتظل "الأميرة الحزينة" تعاني في ولادتها ثلاث ليال من الألم, وساءت الأمور, واقتربت وجنينها من الموت, وما زال الرجل يدعو ويبتهل:

_اللهم نجها أنت ربها ووليها.

ساءت الأمور وفشلت القوابل, والأمر جد خطير, ابنته تقترب من الموت وجنينها معها, بينهم وبين المدينة أربعون كيلو متر, ولا طرق ولا عربات ولا بديل غير نهر النيل, يُحضر إليها طبيبًا,

خرج الرجل هائمًا ليلًا ليحضر طبيبة تنهي ذلك الوضع الخطير, وتحفظ عليه ابنته وجنينها بأي قدر من الإنفاق أو المجازفة.

نجى الله ابنته بمفازة منه ونجى جنينها.

كانت أمي ابنته وكنت أنا الجنين.

-رحمك الله أبتِ-, والله إن عيني لتدمع بينما أكتب, وتنسكب العبرات,

_من كنت يا سيدي, ومن أين أتيت, ومَن وهبك كل هذه الرقة؟

والله إني وأمي رقيقًا لديك ما لنا من عتق.

رحمك الله أبتِ, رحمك الله.

صعب الأمر وتفاقم وزاد العبء, والرجل كما هو في غفوته, وكأن المسئولية شيئًا لا يعنيه؛

فلقد أنجب أخي الأكبر "أحمد" وانفصل عن والدته الأم الحبيبة "مريم" -رحمها الله-, والتي كانت تقطن مدينة الصف قبل زواجها, ولم تطق المرأة صبرًا؛ فحملت ابنها على كتفها وغادرت بلا رجعة؛ ليتحمل مسئوليته جده لأمه, وكانت -رحمها الله- الزوجة الثانية له, وكانت أمي الرابعة, ولم يبلغ الرجل الثلاثين, ترك الأب ابنه ولم يره حتى بلغ مبلغ الرجال.

فماذا فعلت الطفلة الحزينة ولديها هذا الواقع المرير, وطفل تريده بين أبيه وأمه؟.

لا لن تستسلم, لابد أن تفعل شيئًا, هداها عقلها أن تخيط الملابس للفتيات, وكان أبوها -رحمه الله- وهبها ماكينة للخياطة أهداها لها بعد أن قضت أيام نفاس زوجته -رحمها الله- معها في ولادة الخال الحبيب ابنه الأوسط "بهاء الدين" أهداها لها جزاء لتعبها وأيضًا فرحة بأول ولد من صلبه, ويقينًا لم تكن هديته شيئًا بجوار ما أهداها من قبل -رحمة الله-.

أخرجت الطفلة الحزينة عدتها وبدأت رحلة الشقاء بعد السعادة والعمل بعد الراحة؛ فهناك بين يديها طفل تفعل من أجله كل شيء, ناك فلذة كبدها الذي يستحق كل شيء, عانت وصبرت, وحاولت, نجحت وأخفقت, لكن كان من المهم أن تغير الرجل بأي وضع كان, وأبوها لم يزل في ظهرها يزورها .

ويأتي إليها بالنفيس والغالي, يهبها ما يسترها وما يعينها وما يعين زوجها, والرجل كأن شيئًا "لا يحدث",لا يبالي, ولم يتغير ولم يتحرك, ولم يفعل شيئًا.

وأتتها فكرة أن تخرج به من تلك القرية الظالم أهلها؛ عسى أن يحدث الله من بعد ذلك أمرًا, ربما يتغير الرجل, ربما يتحمل مسئولياته.

تحدثت مع أبيها أن يفعل شيئًا؛ فوعدها الرجل أن يفعل ما بوسعه, وفعلًا نفذ الرجل ما وعد به.

تحدث مع أحد أقاربه وكان يعمل مهندسًا بمدينة أسوان, وطلب له أن يوفر له عملًا في مدينة أسوان, وفعلها الرجل, واقنعت "الأميرة الحزينة" زوجها أن يتحرر من قيود القرية, ويبدأ حياة جديدة يتحمل فيها المسئولية, بل لم تتركه يذهب وحيدًا, حملتني وذهبت معه؛ كي تكون عينها عليه, تقومه كلما أراد اعوجاجًا.

وذهبا وأنا ثالثهما؛ ليبدأ صفحة جديدة من الحياة وتحمل المسئولية.

عمل الرجل في إحدى مصانع الأسمدة, واستأجر غرفة في منطقة السيل, وكان عمري لا يتجاوز الثالثة, وبدأ الدرب ينير عامًا بعد عام, طلبت جدتي الذهاب إلى أسوان مع ابنها وزوجته؛ فأحضرها معه لتعود الدنيا كما بدأت, ويعود الابن كما كان, هي تعتبرها أفسدت ابنها وأخرجته من بين أهله وعائلته, و"الأميرة الحزينة" ترى أنها انقذته من براثن الجهل والموت والقتل, وأنها ضحت بالكثير من أجل أن تصنع منه رجلًا يتحمل المسئولية, واحتد الخلاف وتجرأ الرجل فضربها مرة, تطاول على من؟؟

فراشة الوادي وسيدة النساء, تطاول على من لم يهنها كائن من كان, الأميرة الحسناء الكريمة بنت العز والحسب؛ فكان قرارها بانتهاء كل شيء تحت أي نتيجة يترتب عليها قرارها, أرسلت لأبيها, وذهب إليها الرجل وهو الذي يعرف عنادها وشموخها, فأخذ ابنته وطفلها ليعود بهما إلى بيتها ناعيًا جهده وجهدها الذي بذلته من أجل أن تصنع منه شخصًا يعرف كيف يكون مسئولًا.

خرج الرجل, ويقينه أنه خرج رابحًا؛ فربما خسارة كل شيء لا تعدل نظره في وجه هذا الصبي الذي سيكون يومًا في عونها وجوارها.

لم يعبأ الرجل بما حدث ولم يهتم, وتزوج بعد رحيلها سيدة أخرى, وأنجب منها شقيقي الأصغر "أيمن", ونسي التي أخرجته من أرض الخوف والجهل وأرادت أن تصنع منه شخصًا آخر.

ولم تعبأ "الأميرة الحزينة", كانت -رحمها الله- من يسقط من عينيها لا ترفعه الأيام مهما فعل, هي لا تريده ولا تريد شيئًا سوى وليدها.

كان وليدها زوجها وشقيقها وابنها وحبيبها, لكن هل تغير الرجل؟!

لا, فعل مع ابنه الثاني كما فعل مع الأول.

نسي أن له طفلًا يحيا في بيت أمه, وواجب عليه كسوته وطعامه, غير ذلك أن أمي – رحمها الله – لم تطلب الطلاق.

هل كانت ستطلبه من أجل زيجة أخرى؟! -حاشا وكلا-, لم تطلبه إكرامًا لابنها ووليدها؛ حتى لا يشعر أنه بعيدًا عن أبيه, وأن أمه

افقدتــه أبــاه, كانــت تفكــر فــي كــل شــيء, لا تتــرك منطقًــا إلا فعلتــه, ولا عملًا إلا أتقنته, كانت امرأة تفوق كل نساء الأرض عقلًا وحصافة.

فهل سار على نهج رسمته له؛ لتصنع منه شخصًا يعتمد عليه؟

عاد كما بدأ وعاد هناك لكل شيء.

أرســلت إليهــا زوجتــه الجديــدة تســتنجد بهــا أن تفعــل شــيئًا مــن أجلــه بعــد أن كــان يتــرك كــل عمــل يعملــه, فمــا كــان منهــا والله إلا أن أرســلت لهــا الــدقيق والســكر وبعــض مــا تملــك مــن مــال؛ فهــي يقينــا تعــرف مأســاتها ومصــيبتها التــي أوقعهــا فيهــا حظهــا العــاثر, وأخبرتهــا أن هــذا كل ما تملك لها.

_أي عظمة أنت فيها أيتها الأميرة الحزينة؟!

لم تكتفي.

هــا هــي الــدنيا تكشــر عــن أنيابهــا مــرة أخــرى, والأحــزان تــأتي بــأفظع أهوالها.

مــرض الشــيخ الحنــون والأم الــرؤوم أبيهــا وســندها وكــل شــيء لهــا, مــرض مرضًــا عضــالًا لا بــراء منــه ولا شــفاء, كــان عمــري يقتــرب مــن الخامســة, مــرض الرجــل لتحيــا ابنتــه بــين قدميــه؛ علهــا تــرد أقــل مــايمكن رده, ســتة أشــهر والرجــل نــائم علــى فراشــه وهــي تجلــس أرضًا بجواره,

عيناهــا الخضــروان تهمــي كغيــث لا يكــف, تمســك يــده تحتضــنه وتقبلــه, تسأله كل لحظة:

- هل تريد أن أفعل لك شيئًا أبي؟

يرفع الرجل عينه مبتسمًا راضيًا بما في جسده من ألم وبما في قلبه من حزن, فلمن سيترك كل هؤلاء اليتامى, ومن بعده سيحمل هذا العبء الثقيل؟!

ينظر إليها وكأنه يعتذر لها عن فراقها, يرفع عينيه المثقلتين, يبعث لعينيها آخر ما يملك من نظرات الحب, يريد أن يوصيها بشقيقاتها, يريد أن يخبرها أن ابنته "ابتسام" لم تتدلل دلالها, وابنه "بهاء" لم يبلغ من العمر ما يشعر بدفء أبوته, وهذا "العلاء" الذي لم يبلغ الحلم, ماذا سيفعل الدهر معه؟!

كانت عينه توصيها, كانت تقول لها أعلم أنك لم تفعلي شيئًا لهم, لكن أحبيهم كما أحببتك, أحبيهم جميعًا "عفاف" و"وفاء" من تلوك في اليتم, أحبي "تاجًا" و"صلاح" و"ضياء".

اعطيهم ابنتي الحب كما أعطيتك, ثم يغمض عينيه.

كانت عينه تقول لابنته البكر كل شيء, وهي حفظت كل شيء.

أنا لا أكتب إنشاءًا, كنت في الخامسة, وكنت أجلس بجوارها, أراقب نظراته, تدهشني عبراتها, ما زلت أذكر رقدته مستلقيًا على أريكة بجوار المكتبة في الغرفة الصغيرة, وأجلس أنا وأمي بجواره, ما زال المشهد -وأيم الله- منقوشًا بذاكرتي رغم سنيني الخمس.

مشهد تعلمت منه كيف العيون تحكي, وكيف العيون تبكي, وكيف الأحبة يفارقون.

وعلى صدرها مات أبوها, لن أنسى احتضانها ونحيبها, لن أنسى هلعها وصراخها, لن أنسى رجلًا لم أرَ أمي كسيرة إلا وهي تحتضن قلبه الذي كفّ عن النبض.

وها هي "الأميرة الحزينة" فقدت أهم شيء, بل فقدت كل شيء.

- رحمهما الله - لن أنسى صوتها يصرخ, وكأنها تقول للسماء:

_مرحى بكل شيء إلا هذا الشيء.

لن أنسى أنها كانت تحاول الذهاب مع أبيها, تلقي بارئها معه, وكأنها تقول:

_قبر أنت فيه خير من دنيا بدونك أبتِ.

لن أنسى مشهدًا يشيب له شعر الفتى,عندما يقف الرجل وهو محمول على الأعناق في مشهد سينمائي يحير الألباب, في وسط الطريق مجبرًا كل الأشداء من الرجال أن يضعوا من على أكتافهم رجلًا ميتًا اتخذ قرارًا أن يقف نعشه, لمن وقف الرجل؟!

لابنته التي من صلبه, الطفلة التي لم تتجاوز الثانية عشر, والتي كانت ببيته في "قنا" ولم تدرك أباها قبل لقاء ربه؛ فأتوا بها...لتلقي نظرة وداع عليه, ليقف الرجل الذي بين أكف ربه

ليلقي نظرة الوداع على ابتسامتها الصغيرة.

هالني الموقف رغم طفولتي.

حينها كنت في منتصف السادسة من عمري.-رحمه الله-

ماذا تفعل الطفلة الحزينة وقد رحل سندها وملاذها وأبيها الذي تحمل عنها كل شيء؟!

الفصل الخامس

"كفـــــاح"

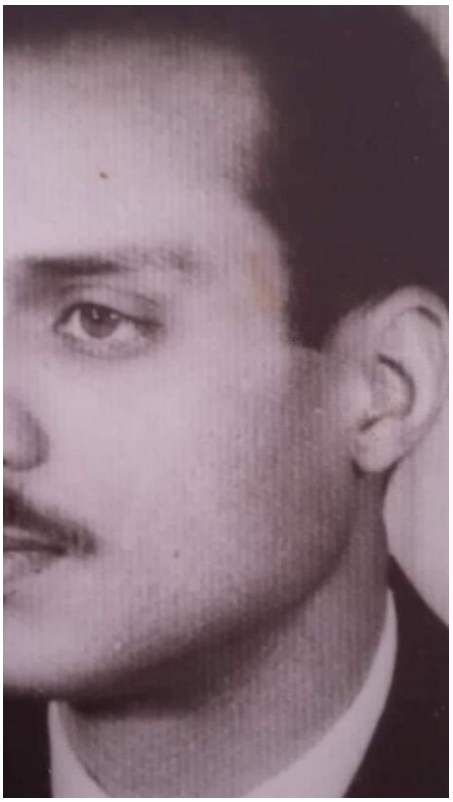

جلست بعد أن رحل كل من في البيت, كلٌ ذهب لموطن أمه, من بـ "الأقصر" ومن بـ"قنا, وشقيقها الأكبر متزوج بالمدينة, وها هو البيت الكبير يخلو إلا من إياها وطفلها, ضاق البيت على اتساعه, وفرغ من كل حبيب وسند, وها هي لا ملاذ لها إلا الاعتماد على نفسها؛ فلديها طفل تريد تربيته, تريد تعليمه وتدلله كما تدللت، تريده رجلًا راقيًا صالحًا يفخر به أهل السماء والأرض.

كان "التريكو والبلسيه", وما شابه علمًا لا يعرفه أحد, ولا يسمع عنه أحد, كان يشبه علوم الذرة في زماننا هذا، في قرية آخر شيء تعرفه النساء أن تطهو دجاجة أو تصنع خبزًا.

لكن الله القدير حي لا يموت بيده اللطف كله.

فتحت وزارة الشئون الاجتماعية مشغلًا لتعليم الفتيات فنون الحياكة, ولكن من أين يأتون بالمعلمة؟

الكل يعرف أنها هي, لكن من يجرؤ أن يطلب من ابنة العز والحسب أن تعمل؟!

كانت ثقافة عمل المرأة ضربًا من خيال، يعابها أفقر الناس وأحوجهم, فما بالك بابنة أشرف من في القرية حسبًا ونسبًا وعلمًا ودينًا؟!

لكن ماذا فعلت الفتاة؟

كسرت كل الحواجز, وقفزت فوق كل القيود, وقررت العمل في الوظيفة, رغم نقد من نقد, ودهشة من اندهش, هي امرأة تعلم ماذا تفعل ما دامت عقيدتها راسخة، إنها لا تفعل خطأً؛ فهي لا ترى أصلًا أحدًا, وها هي تصنع أول معجزة في القرية, بنت المشايخ اشتغلت, وكان ذلك ضربًا من الانتحار، لم ترَ فيه الطفلة الحزينة سوى نزهة في حديقة.

كسرت كل القواعد وكل الأفكار, كانت أول سيدة تخرج للعمل بالقرية ما بين مؤيد ومعارض, لكن هي لا ترى منهم أحدًا قط، هي لا ترى إلا طفلها الذي تريده كما أرادت, لا تريده أن يقتله العوز أو تذله الفاقة، تريده مثلها, تعطيه مثل ما أعطاها أبوها الحنون.

عملت بأول راتب لسيدة في القرية وما حولها -بسبعة جنيهات-, ملأت الدنيا حولنا رغدا. -رحمك الله أمي-

بدأت الأميرة الحزينة، تعيد ترتيب أوراقها؛ فالوضع جد خطير، وأول ما فعلت قررت إعادة أمها التي بدأ الوهن يدب في أوصالها, وبدأت أن تكون حملًا ثقيلًا في بيت أخيها, ليست أمها وحدها ولكن أيضًا أمها الثانية عمتها "نفيسة"، التي أصبحت أكثر حاجة إليها, وزوجها بعد أن امتد بهم العمر, وكأن الله يدبر أشياء من أجل أشياء, ومعها ابنها وعملها.

بدأت بإعادة أمها إلى بيت أبيها, وكأن الدنيا تدور, ونعيدكم "كما بدأناكم أول مرة"؛ فالطفلة اليتيمة أتت إليه خادمة لخالتها الكفيفة, وخرجت منه مطلقة جريحة غير مأسوف عليها, واليوم بعد نصف قرن تعود إليه مع ابنتها بعد أن فرغ البيت بمن فيه رجالًا ونساءًا وشيوخًا, أتت كي تكرم الأميرة الحزينة أمها التي نالت من الشقوة ما نالت, وتستشعر حنان أمها المفقود.

ما أعجب تدابير الله, وما أعجب حكمته -تعالت قدرته وعظم ذاته- وبدأت الدنيا تشرق يومًا أو بعض يوم.

لكن هل يمهلها الفرح يومًا واحدًا لمغيب شمسه؟!

لم يمر عام واحد إلا وقرر الحزن أن يعيد إليها شقوتها, مرضت أمها بالحمى الشوكية, ولم يكن هناك من الطب إلا شرب الينسون أو الحلبة, واشتد المرض, ولكن.. هل يريحها الموت؟!.. لا, برئت, و تلك الحمى لا تذهب إلا بإحدى الحواس سمعًا أو بصرًا أو كلام أو إدراكًا.

تركت كل شيء, وسلبت إدراكها, كنت في عمر السابعة, والأميرة الحزينة تقبلت الأمر راضية كعادتها, زاد العبء وزاد الألم, لكن... هل ستهرب من مسئولياتها؟!

هي لم تَتَرَبَّ على ذلك، وقفت بجوار أمها سندًا وراعية إلى أبعد ما يكون، وقفت وقفة الرجال, تحملت منها كل شيء, تستودعها في الصباح جارتها وشقيقة عمرها الخالة "صفية", ثم تذهب لعملها, ثم تعود لعمتها وزوجها تقضي لها ما تريد, ثم تعود لي ولأمها.

ما أصبرك على البلاء أيتها "الأميرة الحزينة".

لكن...هل يكتفي الحزن بهذا؟!

لا, في ليلة لن أنساها, كنت في السابعة من عمري, وكانت هناك حجرتان في البيت ننام جميعًا في إحداها؛ فأمي يقينًا لن تترك أمها

تنام وحدها, ولن تتركني أنام وحدي, وكان للحجرة شباك كبير الحجم لا يحميه شيئ, ربما لو وقف رجلٌ من أسفله لأعلاه لكفاه, وكانت الحوائط عريضة تسمح لأي أحد بالوقوف فوق جدار الشباك.

وكانت أمي تستيقظ فجرًا تصلي, وتغسل ملابسنا, وتعد الفطور وما شابه, ولكي لا تقلقنا تذهب للغرفة الأخرى

تكمل أشياءها.

أقلق نومي بعضٌ من صوت أمي في الغرفة الأخرى, لكن حاولت النوم مجددًا, وكانت جدتي تنام في سرير مقابل لسريري, وبينما أحاول أن أعاود النوم وليس إلا كلينا في الغرفة قامت ووقفت على السرير وكانت شبه نائمة, بعقل طفل تعجبت من وقوفها فوق السرير، لكن لم أهتم, واتجهت من فوق السرير إلى النافذة تحاول فتحها, وكانت هذه الحجرة في الدور الثاني، وأنا ما زلت أنتظر ماذا سوف تفعل, يقينا تريد أن تفتحه, ستفتح النافذة وتعود، كانت ليلة شتاء باردة, وكانت النافذة محكمة الغلق، وهي تحاول جاهدة فتحها.

وأنا كطفل حائر, ماذا تفعل جدتي وكان ضوء الصباح بدأ في الانشقاق يسمح لك بصيصًا منه أن ترى ماذا يحدث, وحدثت الكارثة, كانت جدتي تعتقد أنه الباب، وكانت فقدت بعضًا من إدراكها, وإدراكي لا يسمح لي بتخيل الأشياء السيئة, وجدتي ما عادت تميز نافذة من سواها.

حدثت الكارثة وأنا شاهدها الوحيد, رأيت كل شيء, ولم تمكنني طفولتي فعل من فعل أي شيء، سقطت المرأة الحزينة من شرفتها، وكأن الأحزان تخبرها أن في هذا البيت قُدِّر كل شيء سيء لها، طفولتها الحزينة، وزيجتها الظالمة, وجرحها العميق, ومرضها العضال, وموتها المحزن.

هناك أماكن تناديك إليها؛ لتتشفّى فيك كيفما شاءت.

كارثة كانت بكل المقاييس, كارثة ناهيك عن الأميرة الحزينة التي لم تتكأ جراح أبيها بعد، ها هي يسلبها القدر أمها بعد عام واحد من اللقيا, وكأن الله كتب عليها اليتم دائمًا وأبدًا.

ولكي لا أنسى هالني موقف سقوطها, وظل موقفًا شاخصًا أمام عيني لا يفارقها حتى يومي هذا، صوت ارتطامها بالأرض كان شديدًا,ولم أسمع لها صوتًا من الألم حتى, وكأنها ماتت قبل أن تصل إلى الأرض، غطيت وجهي وأغلقت عيني وفتحت أذني تسمع كل شيء، تسمع صوت أمي تأتي مهرولة تبحث عن مصدر صوت الارتطام، كان وقع قدميها مسرعًا يدب فوق السقف، وأنا أسمع فقط, ليتجمد جسدي فجأة بصرخة مدوية من أمي، تخرج عليها الرجال والنساء من كل مكان.

ما زلت أغطي وجهي وأغمض عيني؛ فالرعب يملؤني من رأسي حتى إخمص قدميَّ، سمعت ضجيجًا كثيرًا في الشارع, لكن ما زلت مصرًا على إغماض عينيّ وإبداء النوم العميق.

كنت الشاهد الأوحد على تلك النهاية المفجعة، آلمت الأميرة الحزينة طريقة الموت أكثر من الموت نفسه.

زاد من حزنها مقولة الكاذبين: لقد ألقت بأمها لتتخلص من عنائها.

قاتلكم الله بما كنتم تفترون، كانت تنام بجوارها خوفًا عليها, وتتركني في السرير المقابل؛ لأنها لا تضمن ماذا تفعل.

أيها الكاذبون, لعنكم الله أينما كنتم، وأينما رحلتم؛ فأنا الشاهد على برائتها وخلقها وبرها.

كان الأمر موجعًا للأميرة الحزينة أكثر وجعًا مما قبل, _لكن هي أقدار الله بها نرضي وبها نحيا وبها نموت, لا راد لقضائه هو نعم المولى ونعم النصير, كانت تلك كلماتها وليس كلماتي.

حاولت "الأميرة الحزينة" أن تبتلع أحزانها, وتبدأ من جديد؛ فهناك ابنها الذي وهبت نفسها له, وهناك عمتها المكلومة التي لا سند لها إلا إياها.

زدنا، أنا والأميرة الحزينة ارتباطًا, كانت تخشى عليَّ أن ينتزعني القدر منها كما انتزع كل جميل لديها, كانت تعانقني عناق الخائفين, وتتشبث في حضني تشبث العاشقين، كنت لها كل ما تبقى وكل كل شيء.

تتفنن في تدليلي؛ فجعلتني طفلًا غير كل الأطفال, فعلت معي ما فعله أبوها معها، فكلانا يتيمان, وكلانا لابد أن لا يشعر بشيء من

النقصان، كل ما اختلف بيننا أنني كنت يتيمًا وأبي كان على قيد الحياة، لم أطلب شيئًا إلا وأجيب، ولم أحلم بشيء إلا وحققته لي، ناهيك عن قصص العلم والتراث والقرآن وحكايا أبيها الشيخ محمود, بينما كانوا أقراني يتحاكون عن الجني و"أم الشخاليل" وآخر تساليهم اللعب بـ"نوى" التمر ومقل الدوم -رحمك الله- "أميرة الأحزان".

نعود لأخيها, خالي الحبيب منتصر-طيب الله ثراه - هل ترك أخته تتقاذفها الأمواج؟!

بالطبع لا؛ فهي شقيقته, وحبيبته, وسنده التي لم يرد إليها ما فعلته معه.

ورث الرجل تركة ثقيلة من أبيه, ولم يكن الرجل يملك ما ملكه أبوه, كان الأب يملك المال, ولم يكن له مصدر لذلك المال, وكأن السماء تسقط عليه فضة أو ذهبًا, وليس هذا مبالغة,

وكان الشيخ "محمود" يستيقظ على بعض القروش تحت وسادته فيعطيها لأخيه يقتاتوا منها، فيذهل الرجل من أين له هذا، فيخبره أخاه من عند الله حتى وصلت به الدهشة أن يشكُ شقيقه لأبيه قال له:

- ابنك بيجيب فلوس ومش عاوز يقولي منين

فاضطر الرجل أن يخبر أبوه فضاع المال وضاعت الوسادة

نعود للخال الحبيب ماذا فعل مع أخته الحبيبة!

أولا تولى أعظم مسئولية لن تتمكن "أميرة الأحزان" من تحقيقها لي

تولى دور الأب الحنون لي رقًا وعطفًا وحبًا حتى ظننت إنه أبي وليس خالي، كان يعلم احتياجاتي كلها، من كلمة طيبة، من ملبس، من مأكل، من حلوى، من كل ما يطلبه طفل في عمري، كان أبًا وظل أبًا وسيبقى دومًا أجمل كل من وافق وأبى .

أما شقيقته فتولاها بنفس الرعاية لكن لم تمكنه أعبائه إلا من رد ما وهبته له مصاغًا بما سمح له راتبه لكن شقيقته كانت تعلم حجم مسئولياته على اخوته واسرته، فكانت مرة تأخذ ومرة ترفض حسب عوزها وحاجتها لكن الرجل أعطاها أكثر من المال، أعطاها الحب الذي تفتقده؛ فما أجمل أن يحبك أخوك, حب الأخ له مذاق

يختلف عن كل العواطف, أجمل ما فيه شعورك المطلق بالأمان, لقد جربته مع إخوتي -حفظهم الله- فما كان أجمله.

رحم الله الخال الحبيب "منتصر".

مرت الأيام شبه هادئة, ليطفو على السطح شيئٌ لم يكن في الحسبان.

أغلقت الدنيا كل أبوابها في وجه الزوج بعد أربعة أعوام، نسي فيها أنه له زوجة وابن وليس وحده هناك، ابن في القاهرة بلغ من العمر الثالثة عشر لا يعرفه ولم يره من قبل، تكفل جده لأمه به وأصبح لديه طفلًا جديدًا من الزوجة الأخيرة في "أسوان، ذاك المكان التي هربت به "الأميرة الحزينة" لتنجو به من الجهل واللامسئولية.

أغلقت كل الأبواب في وجهه وهو لا يعرف منفذًا للضوء سواها، أي ظلم ظلمت يا ابنتي, وأي ظلم ظلمت يا أمي؟!

عاد الرجل لزوجته وابنه, تقرأ في عينيه ندمًا على ما فعل.

نسيت كل شيء؛ فكنت وبرغم كل شيء أتوق لأبي, جاء يلوذ بالأميرة, استقبلته ليس رغبة فيه, ولكن من أجل ابنها الذي دومًا يسأل عن أبيه.

الرجل لم يعد يعنيها من زمن بعيد, هي الآن تملك زوجًا وحبيبًا وصدرًا دافئًا تسأل الله أن يديمه عليها، ابنها ولا ترى من الرجال غيره.

لم تطرده أو تعيده من حيث أتى, ولكن استقبلته؛ لتمنح طفلها عذوبة شعور بالأبوة.

ما أجمل أن تفعل شيئًا لست مقتنعًا به من أجل سعادة الآخرين بهذا الفعل.

عاد الرجل مستنجدًا بها، ولأن الشهامة طبعها سألته:

- ازاي اساعدك

ـ الشباب بيسافروا دول الخليج وانتي ولاد عماك قادرين على ده

- وانت معاك فلوس لده؟

ـ مش معايا حتى ثمن تذكرة الرجوع لأسوان

قلبت ذاكرتها وأمعنت فكرها واستدعت إرادتها الفولاذية, وقررت..

ورثت من أمها قطعة أرض لا يتجاوز سعرها في ذاك الزمن أكثر من خمسة وعشرين جنيها، وبحثت في عقلها عن أكثر الرجال من أبناء عمومتها، لن يتخلى عنها, وهنا أقصد أبناء عمومتها, -أي من العائلة-, ولم أقصد أبناء عمومتها أشقاء الدار، وهداها فكرها لأشرف الرجال وأرجل الرجال ابن عمها "رسلي خضري",

والمقيم بالقاهرة، أخبرت أخوها الذي لم يكن راضيًا عما تفعله، بل وحذرها، لكن كان تفكير خالي الحبيب في اتجاه, وتفكيرها في اتجاه آخر، هو يعلم أن الرجل يريد مرحلة, وهي ما زالت تحاول أن تصنع منه شخصًا يعتمد عليه، ليس من أجله ولكن من أجلي، أخذتني وأخذته وما ابتاعت به الأرض -الخمسة وعشرين جنيهًا- لننطلق إلى قاهرة المعز، لأول مرة نراها فيها.

أكرم الرجل وفادتنا, ورحب وزوجته بابنة عمه ترحيبًا يليق بابنة الحسب والنسب، وكانت تكلفة السفر كلها تقرب على المائة جنيه, تكفل الرجل بما بقي، وفي خلال أسبوع واحد, يطير الرجل للعمل بالخليج, وتعود أمي شاكرة فضل الرجل ملحة على أبي أن أول شيء يفعله هو أن يسد دين الرجل.

ولم يفعل، وكيف يحدث ذلك؟! وهي امرأة قالت كلمتها ووعدت ابن عمها، أن يرد إليه ماله، في خلال أربعة أشهر؛ فهل ستقبل أن تصغر في نظر ابن عمها الحاج "رسلي"

لا, وكلا، باعت قطعة أخرى وسددت ما بقي.

واحتد الخلاف بينهما مرة أخرى, وكما كانت قادرة على ذهابه، كانت قادرة بأبناء عمومتها على أن يعود أدراجه, لكن أبت نفسها عليها أن تحطمه، فإن جاء أو ذهب، هي لا تريد أن تجرح طفلها حتى في أبيه الذي لا يعرف ما عليه من تبعة وأعباء.

تقبلت "أميرة الأحزان" طعنتها الجديدة بصدر رحب؛ فلقد تعتق جسدها الطاهر, وأمسى لا يبالي بشيء, قدرة غريبة على الصمود والتحدي، وقبول أي شيء, تقف شامخة أمام كل نوات الحياة شاهرة عزيمتها في وجه كل إخفاق وانتكاس, امرأة فولاذية في كل شيء, لا تمل المحاولة أبدًا، كرامتها فوق كل شيء, إرادتها فوق كل إرادة, وقناعتها فوق كل قناعة, لا تثنيها عما أرادت أية قوة

مهما كانت, ليس لديها مانع أن تخوض حروبًا شرسة من أجل ما تؤمن وما تعتقد.

لكن...

هل تكتفي الأقدار؟! لا، لابد أن تجهز عليها، وهي في كل مرة تقوم تنفض عنها غبارها, وتقول للأيام:

ـ ها هنا أنا ما زلت أقاتل وأمسك سيفي.

هذه المرة الابتلاء مع من؟

حبيبيها وصديقها وابنها وكل كل شيء.

كنت أشعر بآلام في بطني لا أتحملها,

ماذا حدث؟! كل شيء إلا أنت, هيا إلى المدينة, -إلى شقيقها-

- أخويا "محمد" تعبان الحقني

ذهب بي لطبيب صديقه اسمه الدكتور "يوسف كامل" جراح له عيادته, فأخبرهما الطبيب أنني أعاني من فتق, ويلزمني جراحة, والتكلفة خمسة وعشرون جنيهًا

ـ انا حاتصرف يا لواحظ

ولكنها كانت تعلم حاله، هي لن تنتظر، تركتني وعادت, اقترضت المبلغ من أكثر من شخص، لم يبقَ من مصاغها حتى أبسط ما ترتديه النساء, قرطًا في أذنها.

أكملت المبلغ, وعادت إليّ مسرعة تبكي بكاءً فاق دمعها على أبيها, وتتمنى لو تفدي ابنها بكل نفيس وغال، وأدخل العمليات, وكان أخوالي الأحبة جميعهم معي, "صلاح وضياء ومنتصر وبهاء وابتسام وأم بهاء".

لن أنسى جلوسهم جميعًا في ردهة العيادة يهدئون من روعها, ويبكون، وتجرأ خالي صلاح الحبيب أن يدخل معي غرفة الجراحة, حتى استلقيت على السرير، لن أنسى هذا القرص المبهر, ضوءه فوقي كان يشبه الشمس.

لم أكن أعرف ما كان يُعد لي، كنت مهتمًا بشيء واحد, لماذا كل هذا الضوء فوق السرير؟!

الأمر لن يتعدى الكشف عليّ, هناك أمرٌ ما يدبر لي, وبينما أفكر ذهبت في نوم عميق لا فواق منه.

أكرمني الله, وخرجت من التجربة بأن هناك أناسًا يحبونني حقًا غير أمي، لا أنسى السيدة الفاضلة أم بهاء، وأنا في فترة النقاهة طلبت شيئين، ثمرة رمان, ولم يكن وقته؛ كان شتاء, والطلب الآخر طبقًا من البامية, ولا توجد بامية في الشتاء، ولا أغذية محفوظة, من أين أتت السيدة الكريمة بهما؟! لا أعلم.

ما زالت منقوشة بذاكرتي وهي تدخل بطبق البامية الخضراء, وثمرة الرمان مع بعضهما، لا يمكنك نسيان فعالهم.

أذكر كل شيء، كل شيء, لكن ليس كل شيء يقال.

نجّى الله وليدها وابنها وحبيبها، فرحت فرحًا كثيرًا.

وكعادة الأيام معها, تمهلها بعض الليالي تلتقط فيها أنفاسها ما بين كرب وكرب، مرت الشهور ليست بعيدة, والحياة تسير, لكن كعادتها تتربص بها ريب المنون.

جرت العادة أن يجتمع الجميع, من في الشمال, ومن في الجنوب؛ لقضاء أيام الأعياد بالبيت الكبير، كنت أنتظر ذلك على أحر من الجمر، كنت أتوق للعزوة والجمع، كنت أنتظر ملابس العيد من خالي الحبيب "منتصر", وأوراق النقدية الجديدة, كنت أنتظر مداعبة "ضياء", وخفة ظل "صلاح"، وشقاوة "بهاء"، واللعب مع "علاء"، والذي يفصل بيني وبينه هو عام واحد, كان حدثًا سعيدًا أنتظره على أحر من الجمر، كنت أستمتع بالصخب، وبالفاكهة، وبالعيديات, كنت أنتظر قدومهم وأنا كلي شوق ولهفة, كنا نقرأ أشعار أبيها, وكنا نزور الراحلين في المقابر، كان البيت مليئًا بالناس، يعيدون ويذهبون, كان جوًا مختلفًا يقينا على ما أحياه, لكن في تلك المرة حدث شيئٌ عكّر كل شيء.

كنت أنا والخال علاء لم نتجاوز الثامنة من العمر، كنا طفلين, واختلفنا اختلاف طفلين, فربما سبني أو سببته, لا أذكر ماذا حدث.

قريبًا من مجلس رب البيت الذي كان ينظر إليك ولغيرك لو أخطأ أحدهم؛ فترتعد فرائصه, كبيرًا كان أو صغيرًا, وبمنطق الرجل، كيف يكون هذا سلوك أبناء وحفدة العلم والدين؟!

خرج الرجل من غرفته غاضبًا ثائرًا, يدافع عن أخلاق جيل لابد أن يعرف أنه ليس هنا مكانٌ للخلاف, وليس هناك مكانٌ للسباب ولا للفرقة, غاضبًا من أجل بيت لم يعرفوا فيه إلا المودة والحب, أراد الرجل أن يخبرنا بأنه ليس هنا مكان إلا للحب, هم من عرفوه درسًا أراد أن يلقنه لأبناءه ليتعلموه.

خرج الرجل وفي يده عصًا صغيرة تتناسب مع أعمارنا الصغيرة، كان الخال علاء أول من قابله نال إحداها, وكان -حفظه الله- أيضًا طفلًا رقيقًا, وكان من العدل أن أنال أنا الأخرى, فما كان مني إلا أن عدوت من أمامه؛ لأنجو من عقابه, ملقيًا بنفسي في أحضان حبيبتي، أمي, التي لم تكن تعرف ماذا حدث وماذا يحدث.

ويقينا فتحت صدرها الحنون تحميني مما لا تعرف ولا تعلم.

لكن الرجل يقينًا لابد أن ينفذ عدله؛ لأنه يعلم أن عدلًا ليس هناك قوة تحميه، يشبه قوة ليس هناك عدلٌ يحميها.

كلاهما، تذهب بكليهما إلى الزوال.

ولأنه رجل العدل, أتى خلفي؛ لينفذ عدله لتلتفت حبيبتي, وأنا بين صدرها تحمي فلذة كبدها, والرجل مصرّ أن ينفذ عدله، فلقد تورط في ضرب الخال علاء, والعدل عدل، لا بد أن أنال مثل ما ناله.

التفت "سيدة الحزن" التي لا ترى غير شيء واحد, وليدها سوف يتأذى, التفتُّ لأنال أنا نصف العصا، وتنال هي النصف الآخر, لم تكن العصا إلا شيئًا صغيرًا, لكنها -رحمها الله- نال ذراعها شيئ منها.

لتكمل "أميرة الأحزان" باقي استدارتها, ولظى يخرج من مقلتيها, أودعتني جانبًا, ونظرت لأخيها نظرة لن أنساها, واندفعت نحوه وقالت:

- "منتصر"

_ ماحدش في البيت ده يمد إيده على محمد,

محمد ضيف هنا، الكل يكرمه، آخر مرة تمد إيدك على ولدي، مفهوم!

ذهل الرجل ووقف مذهولًا من التي تحدثه, إنها شقيقته، وحبيبته، لم تنادِهِ مرة بـ"منتصر", كانت

تقول له إما يا "أخويا" أو "نصرو"

كان طفلها المدلل وحبيبها, لم يرَ يومًا منها تلك النظرة, ولا تلك الطريقة, وقف يراجع فعلته صوابه وخطأه.

حكمته ألزمته الصمت، تراجع عنها بظهره, وكأنه لا يقدر أن يغادر عينيها أو يزيد ثورتها، تعمد أن يضع عينيه بعينيها، يريد أن يذكرها به، إنه شقيقها وحبيبها.

أراد أن يقول لها إنه ولدي، إنني أؤدبه؛ ليتأدب أدبنا.

يشعر أنه تسرع تارة, وأنه محق تارة أخرى.

الجميع وقوفًا ينظرون, يتمنون نهاية للموقف؛

فالخلاف بين من أكبر أبناء العائلة سنًا, وأكبر أبناء العائلة مقامًا، دخل الرجل الغرفة ولم ينطق بكلمة,

لا يصدق أنه أفسد فرحة العيد، الموقف لا يجدي فيه اعتذار؛ فهو لم يضرب ابنها فقط، ولكن ضرب الآخر.

أي نوع من الاعتذار سيفسد كل شيء, سيصنع خلافًا عظيمًا, كان لابد أن يكون حكيمًا, لابد أن يمر الموقف بحكمة بالغة,

احتضنتني أمي, وأسقط الموقف سيلًا من عبراتها.

الموقف، أدار شريطًا طويلًا من الذكريات أمام عينيها،

حظها السيء في زوجها, انكسارها، هذا الطفل مكانه بيت أبيه, كنت احتضنها, أود الاعتذار لها؛ فأنا سبب كل جراحها، آلامها أحزانها، لترفع عينها في عيني, والتي كانت ملأى بالدموع، عينها تقول:

- "كل شيء فداك يا ولدي، ما تخافش, سوف أقاتل كل شيء علشانك, ما فيش حاجة في الدنيا هتضرك, ماحدش ممكن ينال من سعادتك يا ولدي, أحبك ياولدي, انت نفسي وروحي وكل شيء، كل شيء.

كاد الأمر أن يمر، أشعل خالي الحبيب "البايب", وأمسك جريدته, ولم يكن يقرأ فيها، ظل يفكر, كيف رغم حكمته، نسي

علاقة شقيقته بابنها كيف فاته ما فاته؟! كيف ساعد شيطانه أن يفسد على الجمع السعيد فرحته؟! كيف ينال طرف عصاه ذراع حبيبته وسنده؟!

كنت أرقبه من بعيد, لم يكن يقرأ الجريدة، كانت عيناه تذهب من أعلاها لأسفلها, وكأنها مكتوبة باللغة اليابانية, كاد يجن جنونه ما بين ما فاته وبين دمع شقيقته, كان الأمر لا يربو إلا عن شخطة يشخطها في الطفلين, فينسيان اسميهما، وربما تبولا من شدة الخوف.

كيف فعل هذا؟! يقينا زوجة أبيه، كانت حزينة نفس الحزن على الخال "علاء", لكن ليس جراحها مثل جراح ربيبة زوجها، الأمر مختلف يقينًا, لكن يقينًا كانت غاضبة؛ فهي أيضًا أتت إلى هنا لتسعد نفسها وابنها، كان الأمر شائكًا في كل شيء.

برغم عمري الصغير, قرأت كل شيء، أشفقت على الرجل, لكن ليس مثل إشفاقي على حبيبتي، لم أنسَ أيضًا في تلك اللحظات حنانه معي ورِقّته معي، كنت أتمنى ألا يزداد الموقف سوءًا، لأعود وأفقد أبي.

الجميع صامت ذاهل، كنا نربو فوق العشرين، أمي توقد المواقد, ها هي تجهز دجاجها وحمامها وأوزها؛ كي تسعد إخوتها الذين يسعد وليدها بقدومهم، كي تبر وعد أبيها أن تحبهم كما أحبها، كانت تفرح بـ"نصرو" شقيقها "منتصر"وإخوتها فرحة لا تخطئها عين.

كانت فرحتها بأخيها حبيبها ورفيق يتمها وآخر من تستند عليه لو جارت الدنيا أكثر مما تطيق.

كاد الأمر يمر لتخرج كلمة خفيضة من بين النساء اللواتي في البيت، لا أذكر مصدرها, جملة أشعلت قلب أمي كحطب جهنم, قلبت كل شيء.

قالت إحداهن همسًا:

- "ومن امتى الحمام الجبلي بيزعل الحمام البيتي" لتقوم القيامة من جديد، أطفئت المواقد, وأفرغت الأواني, وتحطمت القوارير, واختطفت "سيدة الحزن" ملاءتها, وشدت يدي, والجميع ذاهلون, من سمع ومن لم يسمع.

ووقفت قبل أن تخرج من باب البيت وسط الدار؛ لتقول جملتها الأعظم:

_ "ملعون أبو الأيام اللي خلت ولدي حمام جبلي، للي مايعرفش الزريبة بتاعة بيت أبوه أوسع من ده بيت، واللي فيه".

ساء كل شيء, والجميع صامت, هذا الذي يحدث لم يحدث من قبل، وكأن شياطين الدنيا ملأت البيت فرقة وخلافًا.

لم يكن ذاك البيت يومًا مرتعًا لشيطان ولا مارد، كان بيت الحب, وبيت الألفة, ضاع العيد, وضاعت بهجته.

أمسكت بي يدًا تقبض على كفي الصغير، تخبرها لن تضامي ولن تنالي من الخذلان أبدًا تقول كفها لكفي:

- سأظل رفيقتها وأمانها وسندها، كانت قبضتها تحكي لي عن عمري الذي مضى, وعن عمري الذي سيأتي.

كانت عيناها ما زالت تهمي, وكلما مرت بجوار أحد في الشارع في طريقنا لبيت عمتها وزوجها خال أبي أيضًا, كلما مرت بجوار أحد تسحب بردتها فوق عينيها, لا يجب أن يرى أحدٌ انكسارها ولا دمعها.

هي المرأة الفولاذية, القدوة والمثل، مضرب الأمثال في القوة والمثابرة والعزيمة.

تعمدت "الطفلة الحزينة" أن تأخذني لبيت زوج عمتها خال أبي؛ لتخبرهم أنكم كما لكم بيت يحيا فيه ابني، لابني وأبيه بيت تحيون فيه، بل تأكلون وتشربون فيه.

بل ينالله من فضل ربه ما ينالكم، أتحدث عن جدي خال أبي, كانت امرأة مقتدرة في كل شيء، فعلها وفي ردته.

مكثنا الظهيرة في بيت الشيخ حلمي خال أبي وبيت عمتها.

كليهما يهدئ من روعها:

- الموضوع بسيط يا "لواحظ"

ـ لا مش بسيط فيه حاجات انتوا مش شايفينها,

ومش هتشوفوها.

جاء المساء، وسافر من سافر, وبقى من بقي, وجاء خالي الحبيب –شقيقها- لينهي أمرًا يقينا لم يقرأه كله، لكنه أدرك تفاصيله جيدًا.

جاء يرضي حبيبته وشقيقته, ويرضي خاطرها, ويقينا لن تتركه عمته وزوجها، اللذان كانا لهما من التقدير والاحترام عندهم ما أعجز عن وصفه.

دخل وحيّاها باسمًا في وجهها، وكانت ابتسامته نادرة الحدوث، عينه تعاتبها، ربت على كتفها وقال لها:

- اللي فكرتي فيه، عمري ما فكرت فيه,

"محمد" ابني التاني, وانتي عارفة كده,احنا أبوه، واحنا أمه، واحنا كل حاجة,أنا مقدر مشاعرك يا "لواحظ", وفاهمها كويس, ولما حد في البيت تعديه حاجة مين في البيت اللي يفهمه.

خالي "منتصر" الحبيب لم يكن ليتفوّه بهذه الكلمات لأحد من البشر, كان اعتزازه بنفسه غريبًا.

احتضنت أخاها, وبكت كثيرًا بين ذراعيه، وبكى الرجل, وبكت عمته الجريحة, وبكى زوجها المكلوم في ذريته؛ ليتحول الموقف لغيث من الأدمع, وأنا أراقب الوجوه, لا أود أن تغمض عيني عبراتي؛ فيفوتني هذا المشهد الرهيب من الحب، ومن الأخوة, ومن الجراح, ومن الألم, ومن التسامح.

انتهى هذا المشهد الرائع المحفور في ذاكرتي, لا يغادرها أبدًا بعمتها الحزينة, تقوم تعد فناجين الشاي البيضاء والسكرية التي تحوي قطع السكر الناصعة على صينيتها الرخامية البيضاء المزركشة.

شربوا جميعًا فناجين الشاي، إلا أمي, وكأنها تعلن حدادًا على شيء ما، يجول في خاطرها، كانت صامتة تضمني لصدرها, وكأن ملك الموت يدور حولي.

كان دفء صدرها كبحر أرقد في قاعه,

كنت ألمس خوفها بيدي وأرى حبها بأم عيني.

شربوا الشاي لينهي خالي الحبيب جلسته سائلًا إياها:

- لواحظ حتباتي مع عمتك تهدي شويه ولا تروحي معايا؟

ـ ياواد أبوي

وكنت أول مرة أسمعها تقولها له, وكانهأ أعظم امرأة تجلس في مجلس مفاوضات سياسية, قالت الكلمة وأرادت أن تقول له، لا أريد أن أفسد عليك علاقتك بأهل أمك؛ فأنت شقيقي أراك بين شقي الرحمأعرف ذلك، وأنا التي سأريح قلبك من كل المتاعب,

قالت كل ذلك في جملة واحدة: يا (واد أبوي)

- إيه يا لواحظ! ما لك ياختي؟

الرجل أيضًا يمارس الفاظ الساسة، أراد أن يقول لها إنه أخوها بكل ما تحمل الكلمة، كل هذا يحدث في بضع ثوانٍ.

ـ منتصر يا أخوي

لكن كان ردها يذهل أيضًا,

قالت: منتصر يا أخوي

فالموقف ليس موقف مداعبة أو دلع، لم تقل "نصرو", كما كانت تناديه؛ فالأمر جد خطير

أعلنتها ترج البيت كله، وعمتها وزوجها، وشقيقها، وأنا.

قالتها مدوية

- منتصر يا أخوي,

"لا أنا ولا ولدي قاعدين في البيت ده تاني,

ولدي ابن ناس, مش حستنى لما حد يقول كلمة زي اللي اتقالت النهارده, منتصر, أنا حأجر مكان برا, واخد عفشي, وأقعد أنا وولدي لوحدنا، لا حد يعايرنا ولا نعاير حد".

صدم قولها شقيقها الذي ظن أن الأمر انتهى, ليثور مرة أخرى:

ـ انتي اتجننتي يا لواحظ؟!

انتي حتجيبي لينا العار؟!

- أجيب لأي حد العار، لكن مافيش مخلوق يعاير ولدي.

احتد الحوار, ولكي لا يخطيء خطأ الظهيرة في المساء، حمل البايب خاصته وتبغه وخرج، ويقينًا بداخله أن شقيقته لن تفعل ذلك أبدًا.

قضينا ليلتنا في بيت جدي حلمي أفندي, وكلما غفت عيني يغادرها النوم، أفتحها فأجدها وأنا على صدرها,

تشخص في سقف الحجرة, تُعد ماذا سوف تفعل حتى الصباح.

مع أول أضواء الصباح كانت لها قريبة من عائلتها، سيدة فضلى، كانت تحيا في بيت قريب لبيت أبيها، وكان لها من الأبناء والبنات ما ضاق بهم المنزل؛ فبنوا بيتًا آخر, وتركوا بيتهم بلا أحد يسكنه، ولم يكن هناك شيئٌ اسمه الإيجار.

كانت السيدة تدعى "أم فوزي عبد الكريم" -قريبتها-، أخذتني إليها وقالت لها:

- أنا محتاجه البيت

لغاية ما ألاقي حته أسكن فيها يا عمتي

ذهلت السيدة -رحمها الله- وقالت:

ـ لواحظ ست الصبايا تدور على بيت وأنا عايشه؟

مين زعلك يا بتي؟

اكتفت الطفلة الحزينة بدمعة من عينيها؛ لتحتضنها السيدة الكريمة, وتنادي إحدى بناتها:

ـ يا بت بسرعة هاتي مفتاح البيت الشرقي دلوكيت فورًا.

ـ حاضر يا أما.

- خدي المفتاح يابتي, والبيت بيتك مية سنه جاية.

ـ أنا حأجره يا عمتي.

- ومن امتى يا بتي الناس بتأجر بيوتها؟

ده بيتك، ولا راجل ولا ست مادام أنا على وش الأرض يطلعك منه.

شكرتها ممتنة, وخرجت من عندها على بيت السيدة.

كان البيت على رغم ضيقه على أصحابه، إلا أنه كان كبيرًا علينا, به تسع غرف, كل غرفة مساحتها تربو على الخمسين متر مربع، كان الغبار يعلو كل شيء, وبهمة ألف رجل, قبل المساء

كان كل شيء نظيفًا, وكأن البيت لم يغادره أهله منذ ساعتين,

وبرا بقسمها, عادت للمبيت ببيت عمتها، وأنا معها, ولم تطأ قدمها بيت أبيها برًا بقسمها أن لا تبيت فيه ليلة واحدة.

جن جنون عمتها، أذهلها فعلها، أيّة إرادة تلك التي تملكها بنت أخيها، أي عناد هذا الذي تحمله، لم تكن النساء في عهدها تعرف التمرد، ولا الرأي حتى، كانت أفضلهن حالًا تأكل مما بقي من طعام الرجال في البيت، بعد أن تُعدَّنه بأيديهن، بل كان بعضهن لا يجوز لها أن تأكل لحمًا مثل الرجال، أي تمرد فعلت ابنة شقيقي، سوف تلوكنا الألسنة:

- انتي مش أي حد يا بتي,

- اشتغلتي وسكتنا، تسيبي البيت!

مستحيل ده انت اللي فاتحة بيت المشايخ, وحتاخدي عفشك كمان؟! ده انتي ناوية تخليه خرابة يا بتي.

- عمتي, حتسيبيني أنام ولا أروح أنام فيه وسط العقارب؟

- لا نامي يا بتي والصباح رباح.

كنت أراقب كل هذا، وأنا مبهور بها، كانت حقًا امرأة تختلف عن كل النساء - رحمها الله - مع أول ضوء للفجر أيقظتني -رحمها الله-، والتفت بردتها, وتوجهت إلى بيت أبيها بمفردها، أخرجت كل ما يخصها، غرفة نومها، صالونها، وسفرتها، أطباقها الصيني الجميلة المذهبة، كاساتها المنسابة البراقة، أكوابها، أباريقها، مراتبها، وسجادها، حتى مواقدها، لمبات الجاز، ومعالقها، كان البيت قصرًا بمتاعها في زمن أيم الله.

كانت أشرف النساء, تتزوج بسرير من حديد، يعف المرء من النوم فوقه, وصندوق من خشب, وطشت من نحاس, وقنينتين من الفخار لزوم الشرب، كانت السيدة -رحمها الله- وهبها أبوها وزوجها متاع الأميرات, وفرش القصور, أعادته لبيت أبيها بعد عودتها من هناك.

بين عشية وضحاها, ووحدها لا معين لها، فكّكت سررها، ودولابها, ونيشها، كنا نتقاسم حمل مقاعد الصالون الثقيلة من بيت أبيها إلى ذاك المنزل الذي أعدته بالأمس القريب.

ما بين عشية وضحاها, تحول بيت عامر بها لبيت خرب، وما زال خربًا حتى اليوم بين عشية وضحاها، تحول بيت آخر كان مليئًا بالخفافيش, ومرتعًا للعقارب, لبيت من بيوت الأمراء.

أذهلني المنظران، أذهلتني قدرتها على تغيير الأشياء، أذهلتني إرادتها وقوتها وعقيدتها.

نمنا أول ليلة في سطح البيت, تحتضنني, تستشعر نشوة النصر، نحاكي النجوم، كانت أعدادها لا تعد، كان الظلام جميلًا, ما أجمل الشهب في السماء، النجوم كثيرة, نحاول أن نحصرها، تقول لي:

- عليك عد باليمين، وأنا من في اليسار

فنفشل, ونضحك, تضمني لصدرها، تطبع فوق خدي قبلات كثيرة, ثم نعود نحكي قصص الأطفال والأبطال, لم تحكِ لي أبدًا قصة أمنا الغولة, كان أقرب خيالها أن تحكي لي عن إيزيس وأوزرويس.

ما أجملك امرأة, وما أعظمك امرأة, وما أقواك من امرأة.

مر يومان، واستدعت عمتها أخاها، ما فعلته لم تفعله أنثى من قبل, لكن الجميع كان يعرف رجولتها, تحدث أي رجل وكأنه امرأة أمامها لا يملأ عينها، رجلًا كان أو امرأة، لكن يقينا كانت تعامل جميعهم باحترام بالغ، ورغم جمالها كان كل من يحدثها يضع عينه في الأرض خشية أن تأتي عينها في عينيه؛ فهي المرأة الجريئة التي لا تخشى رجلًا ولا موقفًا ولا فكرًا ولا أي شيء ما دامت قانعة أنها على الطريق الصحيح.

جاء الرجل -رحمه الله- هاله ما رأى، هاله عنادها وقرارها وفعلها, كانت عينه شاردة – رحمه الله – كان شقيقها – رحمه الله – أفقده هول الموقف ما رأى, كيف من أجل ضربة خفيفة لم تنل وليدها كل ذلك يحدث في يومين؟!

كيف أشرقت الشمس من المغرب وغربت من المشرق؟!

ما فعلته لا يفعله الرجال.

كيف بَنت؟ وكيف هدمت؟ كيف رفعت؟ وكيف أسقطت؟!

من وهبها تلك العزيمة وهذا النفاذ؟!

خرج من بيت أبيه, وكأن "صاعقة ثمود" خرت على البيت وما فيه، تحول بقرار من عامرته إلى طلل لا يستحق حتى البكاء عليه.

نادى على شقيقته، تعصره مشاعر عدة, الخذلان يملأ عينيه، والعتاب، والدهشة، والندم، وكرامته، كان وجهه ألف وجه صامت حزين ذهول، كان ألف شيء في شيء.

نظر لشقيقته, ولم يعقب, وكان ذلك في الشارع أمام البيت.

أخبرت عينه كل ما سبق لشقيقته؛ لترد عينها بجواب عن كل أسئلته:

- انتي راضية يا لواحظ بده؟ "ليقضي الله أمرًا كان مفعولا", قدر الله وما شاء فعل.

انتهى الموقف، استدار أخوها, واتجه نحو سيارة عمله وركبها, وعيناه شاخصتان ما بين شقيقته وأطلال بيت كان بالأمس حضرًا تدق فيه الدفوف.

عادت ممسكة بيدي تنسكب منها بعض عبراتها, تمزقها نشوة الظفر والانتصار، لقد ردت كرامتها المهانة, وثأر فتاها فلذة كبدها, لكن.. من كان في مقدمة قتلاها؟ من كان غريمها؟

كان حبيبها وشقيقها وتوأم روحها وسند خوفها ورفيق يتمها وربيب طفلها, عشقها وليلها ونهارها "نصرو" الحبيب, كان شيئًا غريبًا.

نختلف فنختلف، فنختصم فننتصر، فننتشي, لكن يفسد حبنا نشوة انتصارنا؛ فما وجب علينا أن نختلف, أو ننتصر, أو ننتشي؛ فهذا يقينًا عجبٌ كل العجب.

ما أسوأ أن ينال الإنسان بمن يحب، أن ينتصر على عزوته وحبه وسنده وأمله بل وعشقه، كانت مشاعر الطفلة كأخيها تبكي حزنًا على انتصارها, لم تتمنَّ ذلك الموقف ولا مثله، أربعون عامًا من الحب والعشق والبذل والعطاء، أفسدتها كلمة, لكن لم تفسدها تمامًا؛ فما بينهما أعظم من ذلك.

لم يمر أسبوع فقط, وعاد الرجل – رحمه الله – الخال الحبيب, وكان يفضل أن يقضي جمعة أو جمعتين في الشهر معنا, وكان يأتي من المدينة التي كان بها عمله وسكنه، كان الصباح باكرًا, ليطرق أحد الصبية باب البيت الجديد الذي سكنّاه, ردت أمي:

- أيوه يافلان، تعالى يا حبيبي.

ـ لا ياخالتي ده عمي منتصر جه وقال لي نادي لي على محمد.

عجبًا, الكل لديه كبرياءه وعزة نفسه.

ينادي على الصبي, وتأخذه عزته أن ينادي أخته, لا أدري كيف طويت الدرج طيًا لأدخل عليه وأجده ينفض التراب على ما بقى من أثاث بالبيت, وكأنه يشكو إليه جفاء شقيقته, دخلت فألقيت بنفسي في أحضانه, وكأنني أعتذر له عما بدر مني أوصل الأمر إلى ما هو فيه.

ضمني بأبوة لم أعهد مثلها من قبل, وأعطاني كيسًا من فاكهة الرمان التي كنت وما زلت أحبها، تركت الكيس, ورحت أنفض معه التراب الذي ورثه الهجر والهجير, وكأنني أريد أن أخبره، ما زال البيت بيتنا رغم ما حدث وما كان، أمسكت عنه الفرشاة أحاول كنس الغرفة.

ـ ده مين ده؟!

الأستاذ ماينفعش يعمل كده، ده خالي الحبيب.

خالي الذي رغم كل شيء لم ينسَ فاكهة ابن شقيقته المفضلة, تركني وبحث عن شيء يعد مشروبه المفضل "الشاي", كانت عادته أن يحضر لشقيقته معه كل مرة علبتين من السكر المكعبات, تكفيها إلى ما يكفيها إلى حين عودته مرة أخرى, كانا هو وأمي مدمنَين للشاي، كانت أمي تعد برادًا منه كاملًا, وتشرب ما شاءت, وتعيد تسخينه حتى ينفذ.

كانت تشربه مع كل طعام, وكأنه مشروب غازي يساعد على الهضم, كان أخوها يفعل ذلك, لكن كانت له طقوسه، يشربه خفيفًا في فنجان أنيق وبجواره قطع السكر وكمية صغيرة, لكن على فترات ليست متباعدة, أيضًا كان يشربه مع كل مرة يوقد فيها البايب أو يدخن سيجارته.

لم يجد شيئًا, لا موقدًا, ولا وعاءً, ولا كوبًا, حتى تحجرت الدمعات في مقلتيه، وقبل أن يلملم أشياءه ليذهب إلى عمته؛ ليستشعر أنه ما زال له بيت في القرية، كان باب البيت يُفتح, وكان له ضجيج عالٍ, لتدخل شقيقته بدون دعوة دعاها لها، لكن كان يتمنى احتضانها، يتمنى لقياها، يتمنى أن يسمع صوتها؛ فالتفت إلى مدخل "المندرة", وقلبه يسأل الله أن تكون شقيقته؛ ليحقق الله حلمه, وتدخل الطفلة الحبيبة بصينية من طعام يحبه شقيقها, كوبًا من الشاي, وبعضًا من شطائر الفايش, وفنجانه المفضل تغطيه كي لا يبرد حتى يفطر، وسكرية قطع السكر, والأجمل من ذلك ابتسامة كلها حب, لكن يغلّفها شيء من التمنع، دخلت ليقفز قلب الرجل, ويلتف متصنعًا أنه غير مبالٍ بمن أتى.

وهي التي تعرف سكناته وحركاته وقلبه حين يخفق وحين يهدأ, وقالت:

- صباح الخير يا "نصرو".

وكأن شيئًا لم يحدث, لتخونه مقلتاه, ولا يقوي على حبس أدمع جاهد كثيرًا أن لا تخرج لشقيقته؛ فجرحه غائر, فالطاعن أقرب خلق الله لقلبه, ليلتف ويحتضن أخته كأنه لم يرها من سنين, وتهمي عيناهما, وتمر لحظات من العتب المطبق صمتًا, لم يتحدثا في شيء, كل منهما يفضل أن لا يجِدَّ في الأمور جديد, مر اليوم, وحضرت عمته -رحمها الله- لتدير معه نقاشًا في رأب صدع تلك الكارثة, بينما شقيقته تعيد ترتيب الأشياء, وتحضر من بيتها الجديد ما يسمح بأن تدب الحياة مرة أخرى في بيت أبيها من موقد أو بعض من الأواني أو "لمبة جاز", وها هو بيت أبيها يبدأ أن يخفق في قلبه بعضٌ من النبض بعد أن كفنته دون غسل.

مضى اليوم, وغادر شقيقها وعمتها دون أن يتحدثا معها في أي شيء؛ فالموقف ما زال يحتاج شيئًا من التؤدة والصبر,

وعدنا أدراجنا, أفرط حبات الرمان وآكلها.

-رحم الله- خالي الحبيب.

الفصل السادس

"وزاد الوجع"

لا أنسى أن أذكر لكم من دلال دللت "الطفلة الحزينة" ابنها من مأكل وملبس, تدلل ابنها تارة من خاله الحبيب, وتارات من أمه الحبيبة,

أول طفل تأتي إليه دراجة في القرية وما جاورها, ولم أكن أبلغ الثامنة حين كان رفقاء الصبا يحملون كتبهم إلى المدرسة في أكياس السماد البلاستكية, كنت الوحيد الذي يرتدي بيجامة في القرية, كان الرفقاء جميعهم يرتدون جلبابًا من الكستور ربما لا يرتدون أسفله ما يسترعوراتهم.

أول طفل في القرية كان يخرج بالشورت والتي شيرت ويلبس حذاءً جلديًا وجوربًا, في حين يرتدي أفضل قرناءه

كاوتش (باتا) القماش الأبيض, ويرفعون جلابيبهم ليراه الناس.

كنت الطفل المكلف في مركز شباب القرية بإحضار كرات الملاعب الحقيقية, وليس جوربًا محشوا بالفضلات, يلعبون به الكرة, حتى الجورب كان جوربي.

أريد بندقية صيد,

"خد يا منتصر هات لواد اختك بندقية"

كنت طفلًا لي أب وأم وعائلة غنية عظيمة, كل هذا في صورة امرأة تعادل مائة ألف رجل.

"اللي محمد نفسه فيه, لازم يتحقق".

وكان الخال الحبيب لا يعترض على دلال لي أيًا كان, بل كان يشارك في هذا الدلال ما قدره الله.

مر شهر, ثم الثاني, وانقطع مجيء خالي الحبيب, والأمور تسير هادئة, تقضي أمي وقتها ما بين عملها في مشغل الفتيات تعلمهن الحياكة, وأشغال الإبرة وما شابه, وكلما ضاقت ذات اليد أو طلبت شيئًا ابتاعت قيراطًا من إرث لأمها -رحمها الله-؛ لتحقق لي ما تمنيت, وأبي كما هو لم يتغير, يمكث في الخليج ربما يذكرنا في كل عام مرة ببعض من الجنيهات التي لا تقيم ولا تجدي, وهي لا تبالي, أرسل كما لم يرسل.

تخبرني دومًا بأنها أمي وأبي.

مر شهران أو يزيد, وكنت في العاشرة على ما أذكر من العمر, وكنا ننام في سطح البيت, فلم يكن يكشفه كاشف, نحاكي السماء, ونعد النجوم, ونراقب الشهب, ونحكي قصص الملوك والأمراء, تحكي لي عن عمر وعدله, وأبي بكر ورقته, تعلمني الشعر, والكلمات الصعبة, والأدب, تخبرني عن الخنساء, ندندن بأشعار أبيها مدحًا في رسول الله, ثم يغلبنا النعاس بعضًا من الوقت, تشرق الشمس؛ فتجذب النوم من أعيننا جذبًا.

كان السرير مصنوعًا من الجريد, تضع فوقه بعض الألحفة؛

لنتقي علامات الجريد في أضلعنا, كانت تتعمد نومنا عليه؛ فلقد كانت العقارب لا تتمكن من الصعود عليه, بل كانت تنفر منه, أي شيء يحمي طفلها كانت تفعله.

نقوم في الخامسة, نهرول هربًا من الشمس التي تشرق ملتهبة إلى الدور السفلي, تعد إفطارنا, وربما أخرج أنا أبحث عن بعض التمر الساقط من النخلات الشاهقة الارتفاع, كنت أحب ذلك وأداوم عليه.

وأتت ليلة من ليالي العشق, تغير فيها كل شيء.

اختفت النجوم, وندرت الشهب, وتغير كل شيء.

قررت الدولة أن توصل التيار الكهربائي إلى قريتنا, واستعد الناس لذلك منذ شهر مضى, وبدأوا يمدون أسلاك الكهرباء

في منازلهم, ويضعون في كل غرفة مصباحها.

لم نهتم أنا ولا هي بذاك الضيف القادم الذي سيغير كل شيء, لم نتمنَّ الكهرباء أبدًا, كنا ننتظر الليل؛ لتمتعنا النجوم, كان كلانا يتوق إلى الظلام والليل.

كان جميلًا, ما أجمل أن تحاكي من تحب, وأنت ترى خياله فقط, كان الناس جميعهم نائمين إلا سوانا, كنا نسهر نتبارى من يمكنه إحصاء النجوم, لمن لا يعرف هذا الجمال, وهذا الحسن, وهذه المشاعر؛ يسافر إلى جبل ما, ويطفيء ضوء مصابيح سيارته, ويستلقي فوق الأرض, ويأخذ حبيبته معه في أحضانه يحاكيها ويعد النجوم,

سيفسد الضوء كل شيء.

في تلك الليلة السيئة, فجأة تبخرت النجوم, وأضاء السماء هذا الضوء القبيح, أنارت كل غرف القرية تكشف من فيها,

يضحكون فرحين, ها هم لن يوقدوا "لمبات الجاز", ولن يغسلوا زجاجها "المهبب", ولا يغيرون أشرطتها, ولا يسكبون الجاز فيها, بلمسة على الجدار يتحول الليل إلى نهار.

ما أقبحكم!

وما أقبح ضوءكم, أخفيتم النجوم وأحرقتم الشهب.

بكيت ليلتها؛ ليس لأننا لا نملك مصابيح مثل البيوت, بكيت لأن هذا الضوء النشاز سيفقد علينا رومانسية الليل, وجمال السماء, وخلجات العشق بيني وبين أمي.

مضت تلك الليلة حزينة, كان الليل يشعرني أنا وطفلتي الحزينة أن هذا الكون كله ملك لنا, كنا نملك السماء, ونملك النجوم, ونملك الشهب.

أتى الصباح, ليطرق طارق على الباب, طفل من الجيران:

- عمي منتصر جه وبيقولك هات مفتاح البيت يا محمد.

نزلت إليه ولم أقابله بفرحتي, ولا قبلتي المعتادة, فتحت الباب, ودخل الخال الحبيب, وأعطاني ما أعطاني لي ولأمي, لكن الرجل بفطنته أدرك أن هناك شيئًا يحزنني:

- ما لك يا بابا في حاجة مزعلاك.

- لا.

- لأ, فيه حاجة.

فأدركت أن لا محالة سوف يعرف من شقيقته:

- الناس يا خالي اللي ركبت كهربا...

ولم يتركني أكمل, وأخذني تحت كتفه بأبوة حانية:

- متزعلش يا خالي بكره يكون عندكوا نور,

يا خالي اسكت, خلاص يا خالي, ما قلت أسكت بقى.

سلمت خالي الحبيب, أي الأماني تمنيت فهو لها, لكنه أخطأ الفهم, أنا لا أريد الكهرباء, بل أريدها معتمة في كل الدنيا كما كانت.

لم تمر الظهيرة, وكان يوم جمعة إلا وكان أحد أبناء عمومته, وكان يعمل في الكهرباء "جمال أبو الديك"

كان في البيت عنده:

- جمال بكره تروح تجيب عداد, وتوصل للبيت كهرباء, وتمد سلك من هنا للبيت اللي قاعده فيه أم محمد.

استغرب الرجل وقال له:

ـ مش نمدد كهرباء في البيت الاول؟

فقال له:

ـ لا, تعاقد مع الكهرباء أولًا, ونور من هنا البيت اللي فيه أم محمد, وبعد كده مدد الأسلاك هنا براحتك,

ـ وبعدين في الحنان ده! وبعدين في الجمال ده!

هذا القرار كان ربما يكلفه راتب شهرين على الأقل.

- رحمه الله-

الفصل السابع

"الألم"

مر عام أو ما قارب, فهل تترك الأحزان أميرتها هكذا عامًا دون حزن مستحيل؟!

لكنت في الصف الأول الإعدادي, وكنت في المدرسة, وكنت أخرج بدراجتي أثناء الفسحة, أذهب أحيانًا للبيت, أو إلى أمي في عملها, أو إلى جدتي عمة أمي.

لا أمكث في المدرسة, وقبل أن تنتهي الفسحة أعود للمدرسة, ولم تكن كل تلك الأماكن بعيدة عني.

قادني عقلي أن أذهب لستي "نفيسة", وكانت هي وزوجها وحيدين, لا يبرهما إلا أمي -رحمها الله-

رغم ما كان الرجل يملك من مال وأرض وما شابه,

ولم يكن الرجل -رحمه الله- إلا أبًا حنونًا لي ولأمي؛ فهي ابنة زوجته, وأنا ابن ابن شقيقته.

وقفت أمام البيت, ودخلت أطرق الباب.

وقفت على الباب؛ لأسمع صوت جدتي عاليًا, ربما يتشاجران, هي ربما تبكي, وهو صوته مرتفعٌ, وهناك شيئٌ من المعاناة تحدث, ولم يخطر ببالي أبدًا غير أن هناك شيئًا سيئًا بينهما.

عدت لدراجتي وللمدرسة, وقبل أن تنتهي آخر حصة في اليوم الدراسي, دخل أحد أساتذتي بالمدرسة "أستاذ سعد حسن جاد"

معتذرًا لمدرس الحصة أن يأخذني وقال لي:

- هات شنطتك يا محمد,

روح لأمك عاوزاك عند بيت جدك حلمي.

أيقنت ساعتها أن أحدهم لقى ربه, وهما لم يكونا يتشاجران, المعاناة التي سمعتها, ربما يريد أن يعين أحدهما الاخر, ولا يجد له عزم؛ فكليهما قد بلغ من العمر ما ضاعت معه الفتوة والمقدرة.

كنت أسابق الريح بدراجتي, يقينًا أحدهم توفاه الله, يقتلني الشغف بشيئين:

من الذي توفاه الله؟ وماذا كان يحدث عندما سمعت هذا الضجيج؟

جرت العادة هناك أن تجتمع النساء عند موت أحدهم, يصرخون ويولولون ويعددون, وربما يسكبون الطين على ملابسهم, كانوا

بملابسهم السوداء عند بيت الميت يشبهون يوم وقفة عرفات, لكن ببُرَدِهم السوداء, ويصبح المنظر أقرب لتجمع عظيم من غرابيب سود.

أوقفت أحدهم متسائلًا عن الذي مات, والرجل لا يعرف ماذا يقول؛ خشية أن يصدمني, وهو يعلم يقينا من يكون الميت بالنسبة لي.

أخفض رأسه ورفعها, وقال لي:

ـ البقاء لله في سيدك الشيخ حلمي أفندي.

كان الناس يستبدلون كلمة جدك بسيدك.

أظهرت له الدهشة, وكأنني لا أعرف, واعتليت دراجتي, يقتلني الندم, كيف تركتهما ولم أدخل ظنًا مني أنني لو دخلت لكتب الله مزيدًا من العمر للرجل, ويقينا ما زلت لليوم نادمًا أنني لم أفعل.

وصلت البيت وعيني شاخصة على شخص واحد, ما حالها, وما عساها تفعل, أخشى الحزن عليها, لم أهتم بالرجل الطريح على فراش الموت, ولا زوجته التي أتمت عليها الأيام شقوتها, كنت أبحث وسط مئات النساء الغرابيب السود عن حبيبتي "الطفلة الحزينة", وجدتها, يهمي الدمع من عينيها, شققت طريقًا لي بين النساء إليها, عيناها كجمرتين, وخدها الذي تورد من الحزن, هي لا تبكي زوج عمتها وحده, هي تبكي عمتها معه, هي تبكي آلاف الأحزان التي مضت, ويقينًا ليس ببعيد أن تأتي.

احتضنتني, وطلبت مني أن أتصرف كرجل:

- محمد روح البيت, وودي أي حاجة عاوزينها خوالك اللي مفروض جايين كلهم دلوقت,
وخلي بالك من نفسك.

كانت تلك أول مهمة تطلبها مني في حياتها, ويجب أن أنجزها على أكمل وجه؛ فهي التي تسقيني إذا ظمأت, كنت لا أكلف نفسي عناء السقاية حتى,

ـ اسقيني يا أمي.

- حاضر يا ولدي.

ـ اكتبيلي ياما.

- حاضر يا ولدي.

كان تدللي ماسخًا.

رحل الرجل, ودفن, وأتى الجميع للعزاء, وأولهم خالي الحبيب "منتصر", وفتحت دار العزاء, والطفلة الحزينة مع عمتها تمكث معها, وأخوالي الرجال لا يليق بهم أن يأكلوا في مأتمه, لم يكن أهله يضمرون حبًا لهم, كانوا يستشعرون أن أخوالي استلبوه منهم, وكان يحبهم أكثر منهم, ناهيك عن طباع الرجل خالي الحبيب "منتصر", الذي ربما يموت جوعًا, ولا يتفضل عليه أحد بكسرة خبز.

عاد الرجل وإخوته إلى بيتهم مساء, حاولت كصبي أن أفعل ما يمكنني؛ حتى لا أُغِيْرُ جراحًا في قلب خالي الحبيب, نظفت البيت بقدر استطاعتي, وأحضرت الألحفة والبطاطين, لكن هناك مشكلة, ليس هناك طعامٌ, وجميعهم جائعون, ولم يكن هناك إلا بقالًا واحدًا يغلق دكانه بعد المغرب مباشرة "عم رشدان".

أعرف أنهم جائعون, ويستحي الرجل أن يطلب من ابن شقيقته أن يذهب؛ ليبحث عن طعام في البيت الذي تسكن فيه شقيقته.

لكن كان ابن شقيقته ذكيًا بالقدر الذي قرأ عيون أخواله.

رحت أبحث فلم أجد غير إناء من العدس جف من طول ركنته, وخبزًا, وبعضًا من الطماطم, وبعضًا من المخللات؛ فأحضرتهم كما كانوا, وأنا استحي ممن يطعمني ما لذ وطاب أن يأكل من هذا الطعام.

انفرجت أساريرهم, ولازلت أخشى صدمتهم, قام الرجل وأوقد نارًا, وطلب مني أن أحضر دهنًا, وقطع الطماطم في الدهن, ووضع عليه بعضًا من الماء, وسكب إناء العدس الذي جففه الدهر؛ ليصنع لنا أجمل إناء من العدس مر بفمي, كان جميلًا إلى حد لا يوصف, أكلنا ونمنا حتى الصباح, ليحضر لنا إفطارًا آخر في الصباح, ويكمل وقفته في عزاء زوج عمته.

-رحمه الله ورحم جدي حلمي افندي-

انتهى العزاء, وتفرق الجمع, وانفرد الشقيق بشقيقته.

في اجتماع طاريء, كنت أعرف مغزاه, كنت ثالثهما, لكن من الذكاء ألّا أُبدي اهتمامًا, كنت أتظاهر بأكل التمر المجفف, والعبث بالنوى.

وبدأ الحوار:

- الأستاذ حنعمل إيه في عمتك يا لواحظ؟

ـ انت شايف ايه يا "نصرو"؟

- مافيش حل, يا تقعدي معاها, يا تعقد معاكي.

ـ انت عارف ياخوي إن بيت "طلب" قارشين ملحتها.

- حينفع تيجي تقعد هنا مش حينفع, كان حينفع لو انت معملتيش اللي عملتيه.

ـ موش وقت عتاب.

- أنا وواد أختك حنقعد معاها للأربعين, وبعد كده تيجي هنا, وعشان العضم اللي في التربة أنا وولدي حنقعد هنا, بس عفشي حيقعد هناك, في بيت "سعيد".

ـ تمام يا لواحظ, كده تمام,

وخلي بالك من عمتك, دي محتاجة تعامليها بالشوكة والسكينة.

- ماتخفش يا "نصرو", دي عمتي -وانا مربياها على إيدي-.

ابتسم كليهما, وطلب منها فنجان الشاي, ومن فرحته أعطاني رُبع جنيه جديد, واتكأ على الأريكة,

وقال لي:

ـ روح اشتريلك حاجة يا محمد.

كان ربع الجنيه يشتري علبتين تونا, أو علبتين سجائر.

أقمنا في بيت جدي لأربعين ليلة, كان البيت موحشًا قفرًا, ينعي سيده, تكاد جدرانه تنطق حزنًا على فراق صاحبها.

لقد تغير لون البيت, وطعم البيت, كنت أخشى الدخول لحجراته؛ فألقاه فيعاتبني أنني غادرت بدراجتي, ولم أدخل لأنقذه من الموت, أصبح كل شيء في البيت موحشًا ومقلقًا ويبعث عليّ الخوف والقلق.

لم يكن البيت كذلك يومًا ما, لكن يقينًا كل الأشياء تلهبها المفارقة.

وانتهت الأربعون.

- عمتي حنروح البيت الشرقي.

ـ واه ع الوجع يابتي65 سنة مابيّتّش براته,

ريحة عمك حلمي, وريحة عيالي اللي فارقوا بدري بدري,

ريحة المطارح, وريحة التراب, وريحة الوجع يا "لواحظ", كلها مدخنة في مناخيري.

ـ يامّا, (كانت تقول لها مرة يا عمتي, ومرات يا "أمّا"),

يامّا, النصيب غلاب, وكل واحد ووجعه, أنا عارفه كل ده, عشان كده عوزاك تغيري المطرح, وتشمي هوا جديد.

ـ حتوديني من وجع لأوجع يا بتي؟!, وبيت طلب طول عمرهم حلمانين يشوفوه خربان, طول عمره منور بعمك, وخيّاتي الداخل والطالع,

كانوا يسلموا عليه من ع الباب, ويولّوا يا لواحظ, اهي دارت الأيام, ولولا يا بتي ما عمك كتبلي البيت, كان زمان خلقاتي مرمية في الشارع.

- ياما انت نفسيتك تعبانة, بكره نروحوا البيت الشرقي,

ونقعدوا كام يوم هناك؛ حتى عشان أعرف أوَكّل الطيور, وما افارقكيش مكان منا رايحة جاية.

ـ بس اوعي عاد تقوليلي أقعد في بيت "سعيد", يادي العيب, ويادي الشوم لو قلتهالي.

ـ عمري يامّا, إن كنت حالفة ما ابات لا أنا ولا ولدي فيه,

لكن انت عندي بكل حلفان يامّا.

ـ حتجيبي عفشك يابنيتي؟!

ـ عيب يامّا, بتك ما تتوجعش مرتين, عفشي زي ما هو, وطيراتي أنا حاقعد مع عمتي ربنا يخلهالي.

- ويخليك يالواحظ,

مكان نفسي يبقى خيّاتك عايشين يابت,

وكنت اجوزت واحد فيهم وشالك على راسه.

ـ منا مجوزة أهو واد, واد عمتهم, ماشايفاش يا عمتي؟!

قاعد قدامك برجالة الدنيا كلها.

ـ يا دي الوجع يا لواحظ,

طول الليل والنهار وهم أم يتحركوا قدامي, فاكرة اسمهم,

وليد وليد, لو كانوا عاشوا,

ماكناش أنا ولا أنت ولا ولييدك لقيلالنا مطرح ننناموا فيه.

ـ يامّا الجروح كتير, يامّا ماتفتحيهاش.

وبدأت العبرات تهمي من كليهما ومني,

ـ خلاص يامّا, خلاص يا ستي, حتقلبوها حزن عاد؟

ـ أمي: ربنا ما يكتب عليك حزن واصل يا واد بطني.

ـ ستي: يا رب يا محمد, ويطرح في عمرك أردب سمسم يا وليدي,

قومي يا بنيتي اسلقلينا شوية بطاطس نتعشوا وننام, وفي الشناطة فردة الحمام اللي سايباها لي,

شوحيها للواد, أنا مفييش حتى ضرضور اكل عليه.

ـ يا سلام يا ستي, الواد ياكل من غير ما تحسسه بالذنب,

إيه الناس الجميلة دي يا بوي.

-رحمها الله-

وفي الصباح, أخذت بعض جلابيبها, ذهبت إلى بيت العائلة هي وأنا وأمي, التف حولها بعض جيراننا واقربائنا, تحسن الوضع شيئًا ما, كنا نبيت لأول مرة في البيت الكبير, ومضى بعض الوقت؛ لتشتاق الجدة لبيتها, وتطلب العودة حتى ولو وحدها,استدعت أمي شقيقها ليجد حلًا, طلب منها أن تتحمل عمتها وتريحها, وقال لها:

ـ معلش يا لواحظ, مافيش بديل غير إنك تتحملي, روحي شغلك, وارجعي البيت

بصـــي علـــى طيـــورك, وروحـــي علـــى عمتـــك اتغـــدوا, وبـــاتي معاهـــا, معلش يا لواحظ استحملي,

ربنا هيأ كل الظروف علشان تشيلي الحمل وحدك.

ـ حاضر يا خوي.

وعادت وعدنا معها نحيا بين ثلاثة منازل.

كانـــت تبـــذل جهـــدًا خارقًـــا – رحمهـــا الله –. دام هـــذا الوضـــع لعـــامين, كانت أسوأ واقعة فيه، حدثت معي.

ذات يـــوم، حـــدث شـــيء يـــؤلمني أيضًـــا ذكـــره كلمـــا ذكرتـــه, وكنـــت فـــي الصـــف الثالـــث الإعـــدادي, أمـــي كانـــت لابـــد أن تمكـــث بعـــض الوقـــت فـــي بيـــت أبيهـــا؛ لمـــرض ألـــمّ بإحـــدى جاراتهـــا وقريبتهـــا أيضًـــا؛ فأرســـلتني عصرًا إلى عمتها وقالت لي:

ـ خليك معاها لحد أما اعاود.

وذهبت إليها وطرقت الباب,

ولكـــن لـــم يجبنـــي أي أحـــد، حاولـــت مـــرات أن أســـمع أنينًـــا ولا يجيبنـــي أي أحـــد، وأيضًـــا نظـــرت مـــن عقـــب البـــاب لأجـــد جـــدتي المســـنة مســـتلقية علـــى الأرض تقـــاوم ســـاقيها كـــي تـــنهض فـــلا تقـــوى علـــى ذلـــك، تحـــاول وأنـــا أنـــادي عليهـــا فـــلا تقـــوى، تركـــت البـــاب وعـــدوت لـــدراجتي؛ لأخبـــر أمـــي، وأنـــا فـــي الطريـــق قـــابلني أحـــد أصـــدقائي, وأخبرنـــي أن رفقـــائي ينتظرونـــي فـــي ملعـــب الكـــرة؛ لنلعـــب مبـــاراة فـــي الكـــرة، ذهبـــت معـــه, ونســـيت مـــا كنـــت فيـــه تمامًـــا, ولعبنـــا الكـــرة حتـــى قبـــل مغيـــب الشـــمس, وكأنني فقدت الذاكرة, وعدت لأمي, التي قالت لي:

ـ حاجي بعد المغرب، مش حاعرف أسيب خالتك التعبانة قبل كده.

ذهبت إليها سألتني مندهشة:

ـ أنا مش قولتلك يا ولدي خليك قاعد مع ستك,

لعن الله الصبا وطيشه.

تذكرت ما كانت فيه، خبطت جبهتي اندهشت:

ـ فيه إيه يا واد؟

فأخبرتهـــا, ولأول مـــرة كانـــت يـــدها اليســـرى تجـــذب بردتهـــا, واليمنـــى فوق خدي صفعًا جعلت المغرب ظهرًا.

لم أحزن من صفعتها الأولى, كنت أستشعر أنني أستحقها.

عدا خلفها أقرباؤها وأبناء عمومتها، وأنا أقف يملؤني الخذلان على سوء فعلي, كسروا الباب عليها, أنقذوها في اللحظات الأخيرة,

لكن الموقف ظل عالقًا في ذهني حتى يومنا هذا، يؤنبني، ويخجلني، وينتقص من مروءتي كثيرًا.

الأكثر عجبًا, أن الموقف نفسه يتكرر في نفس الشهر مع الخال علاء, الذي أرسلته أمه لخالتها أم خالي الحبيب "منتصر", التي كانت تفضل الإقامة في بيت خاص لها عند أهلها في مدينة قنا، والتي كانت تملك أخًا آخر من زوج آخر لخالي "منتصر"، وآثرت أن تحيا وحيدة بعيدة عن ولدها, ليأخذ الخال علاء الطعام الذي أرسلته به أمه, ويتكرر معه نفس المشهد، لكن كان الفتى أكثر مسئولية مني, عاد فورًا وأخبر أمه؛ ليذهبوا جميعًا فيجدونها قد فارقت الحياة, وهكذا يتحول خالي الحبيب "منتصر" يتيم الأب والأم كشقيقته,

-مد الله في عمر من لا ولد لها وقضى أجله فيمن لها الولد-.

عِبَر, كل الأشياء فيها عِبَر.

"أميرة الأحزان", كانت كل تلك الأشياء في متناول قدرتها تتحملها في صبر وعزيمة لا تنفذ, كل الابتلاءات

يهدمها معول صبرها, وقوتها, وإيمانها.

حتى نفذ صبر الأقدار عليها, وقررت هذه المرة أن تشطرها, تمزقها, فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة.

الفصل الثامن

"الصفعة"

في صبيحة يوم لم تخرج له شمس في يوم صيف حارق, كانت درجة الحرارة تربو فوق الأربعين في السادسة صباحًا, وكنا وجدتي وأمي نمكث في بيت أبيها, كان العيد لم يمضِ على نهاية أجازته بعض من أيام, وكانوا أخوالي كعادتهم، يأتون, يقينًا شقيقتهم ستمكث معهم تعد لهم الطعام, وتقرأ الأشعار, ويُحيُون جميعًا ذكريات الصبا.

لكن ما زال متاعها في بيت "سعيد"

كان هذا العيد مختلفًا, تكسوه كآبة تستشعر وجودها، كان خالي الحبيب قد اشترى سيارة صغيرة لا تليق بمكانته ووضعه، ثم ما لبث أن اشترى سيارة أخرى أكبر منها حجمًا وقدرة, تعلمنا أنا, وخالي "بهاء", وخالي "علاء", وابن خالي "محمد" القيادة على الصغيرة, وكان أمهرنا خالي الحبيب "بهاء"

وقرر خالي الحبيب أن يأتي بالسيارتين في هذا العيد؛ كي تكفينا جميعًا إلى أي مكان ذهبنا، فلقد أتى العيد, الخال "تاج" وإخوته "صلاح", و"ضياء", وخالي, و"بهاء", و"علاء", و"ابتسام", وابنه, وأنا، العدد كبير, وحتى لا يحرم أحد منا في ركوب السيارة؛ كلف الخال "بهاء" بالحضور بإحداهما, وقاد هو الأخرى.

استشعرت شقيقته الخطر, عاتبته:

- ليه جاي بالعربيتين يا أخوي؟

- وإيه المشكلة يا لواحظ؟!

- الناس غلبانة يا منتصر وبتبص,

دي البلد وأجوارها مفيش غير عربية الحاج نشأت فيها ملاكي,

ده لما عربية بتعدي الناس تجري وراها يا أخوي يتفرجوا عليها,

خايفة عليك يا واد أبوي.

- يا لواحظ، (لا يمنع حذر من قدر), سيبيها على ربنا.

ياواد أبوي الناس بتستكتر,

شيل واحدة منهم في "الدرب"، (درب يعني شارع صغير ضيق مقفل)

شيل واحدة منهم في الدرب واتمشوا بالكبيرة

- وبعدين يا لواحظ؟

ـــ يـــاواد أبـــوي، كفايـــة اللـــي حصـــل لينـــا أول ماجبتهـــا, الحمـــد لله اللـــي نجـــاك يـــا أخـــي، طلعـــوا النـــاس بتـــوع الراجـــل اللـــي اتخـــبط كويســـين، ومـــاطلبوش ديـــة ولا عملـــوا مشـــاكل, ابـــوس علـــي ايـــدك يـــا واد أبـــوي, الناس عفشة.

- وبعدين يا لواحظ؟

انت حتخلينا نعيّد, ولا تفكريني بالبلوى دي؟!

ـــ انـــت حـــر يـــاواد أبـــوي, إحنـــا مـــوش عشـــان بيـــت المشـــايخ، النـــاس مـــش حيحســـدونا, النـــاس بيحبونـــا علشـــان مســـتورين زيهـــم, لكـــن، لـــو شـــافوا غير كده مش حيرحمونا.

ـ لواحظ، روحي اعمليلي فنجان شاي، روحي يا شيخة.

أمـــي -رحمهـــا الله-، كانـــت لا تـــؤمن بالحســـد؛ فواقعهـــا يقينًـــا لـــن يفعـــل فيـــه الحسد أكثر مما هي فيه,

لكن كانت -رحمها الله- تجيد قراءة القلوب جيدًا.

ثـــاني أيـــام العيـــد، كانـــت عـــادتهم زيـــارة آبـــائهم فـــي القبـــور، الرجـــال فقـــط, ركبنـــا الســـيارتين, وقصـــدنا المـــدافن كعادتنـــا كـــل عيـــد، والتـــي فيمـــا مضـــى كـــان يتبـــرع العمـــدة "حلمـــي لبيـــب" والخـــال "أبـــو الصـــفا" فـــي توفير الركايب "الحمير"؛ لتقلهم إلى ذاك المكان النائي,

لكـــن الأمـــر تغيـــر, وأصـــبح هنـــاك بـــدلًا منهـــا لـــيس ســـيارة واحـــدة, ولكـــن سيارتين.

ركبنا وذهبنا كنت أرقب أعين الناس، هل كانت أمي محقة؟

أم كانت اللامبالاة التي فيها خالي الحبيب هي الأصح؟!

كنـــت أرى فـــي أعـــين النـــاس عجبًـــا, مـــا بـــين حقـــد, وذهـــول, واســـتكثار, وأحيانًا كنت أرى في بعضهم جميعها.

لقد صدقت أمي, لكن يقينا لن يحدث شيئ.

ربمـــا الرجـــل الـــذي صـــدمه مـــن شـــهرين هـــذا قـــدره وتلـــك ميتتـــه, لا علاقـــة بين هذا وذاك.

حاولـــت أن أتفـــاءل, وأبعـــد فكـــرة الحســـد، مـــا أكرهـــه مـــن عيـــد علـــيّ ينغص فرحتي بأخوالي القادمين, كما حدث من قبل.

انتهينا من الزيارة, وتوزيع القروش الجديدة لفقراء الحي, وقراءة ياسين,

ليقوم الخال الحبيب "بهاء" بالاستدارة بالسيارة الصغيرة للعودة, ثم يركب الأستاذ السيارة الكبيرة؛ ليديرها مثل أخيه, وكان بجوار المدافن مصرفًا صغيرًا, وهو عائد للخلف، السيارة مصرة على الرجوع صوب المصرف, وكأن أحدًا يجذبها نحوه, ونحن شاخصون، لا نعرف ماذا يحدث وكنا خارج السيارة, سقط نصفها أو أقل, قبل أن يقفز "بهاء" لها -على ما أذكر-, ويوقفها.

عدونا جميعًا نخرج كليهما منها، ونصفها على الأرض, والآخر على جرف المصرف معلقًا.

التففنا, والناس حضروا وأخرجناها على اليابسة مرة أخرى.

حينها عرفت أمي وتذكرتها، إن أهل مكة أدرى بأهلها, وليس شعابها فقط.

حاول الخال "بهاء" أن يثنيه عن القيادة, وسوف يوصله, ويعود يأخذها ومن بقي.

نَهَرَهُ نَهْرَ من لا يريد أن يعترف بتوتره، وسوء حالته النفسية؛ فلقد كان موت الرجل الذي صدمه يربك عليه كل شيء, ويشعره بتأنيب ضميره, ومسئولية ذريته.

مر الموقف، ونحن عائدون, وكنت أعشق القيادة, أدركت حينها من توتره أنه يجب عليه ألا يقود بعد اليوم لمدة ثلاثة أعوام قادمة حتى يبرأ مما هو فيه.

وصلنا البيت, أول ما أخبرت، أخبرت أمي؛ فخبطت على صدرها، وجرت نحو أخيها, ونظرت إليه, أشفقت على ما هو فيه؛ فحالته لن تمكنها من عتابه, وقالت:

ـ حمدالله على السلامة يا "نصرو",

الحمدلله، اقعد يا واد أبوي, تاكلوا ولا أعملك شاي؟

ـ شاي يا لواحظ، شاي.

مرت سويعات, وجميعنا صامتون, انزوت بشقيقها "بهاء",

- بهـــاء، خـــد العربيـــة الصـــبح كأنـــك حتوصـــل اخواتـــك بتـــوع الأقصـــر, وديهـــا قنـــا, وتعـــالى مواصـــلات، خـــد أخـــوك وواد أخـــوك وعلاء.

ـــ مـــا اقـــدرش يـــا اختـــي أعمـــل حاجـــة مـــن وراه، وكمـــان محمـــد منتصـــر رايـــح لمامتـــه عنـــد أخوالـــه فـــي الأقصـــر, ماتشـــغليش بالـــك يـــا اختـــي, مـــش حنمشي بالعربيتين تاني مع بعض.

بعـــدها بيـــومين، وكانـــت قـــد اطمأنـــت أن جميـــع اخوتهـــا وشـــقيقها الحبيب قد وصلوا جميعًا بخير,

شـــقيقها الحبيـــب عـــاد لشـــقته ليـــومين وحيـــدًا قبـــل أن يســـافر الأقصـــر يحضر زوجته وابنتيه.

فـــي صـــبيحة يـــوم لـــم تطلـــع لـــه شـــمس، خرجـــت صـــباحًا أجمـــع التمـــر الرطـــب المتســـاقط مـــن النخيـــل, وعـــدت الســـابعة صـــباحًا, وكنـــا لـــم نـــزل نمكـــث وأمـــي وجـــدتي عمتهـــا فـــي بيـــت أبيهـــا، ومـــا أن صـــعدت الـــدرج وطلبـــت مـــن أمـــي كوبًـــا مـــن الشـــاي، إلا وراعنـــي صـــوت الخـــال الحبيـــب "أبـــو الصـــفا" -جارنـــا وقريبنـــا- ينـــادي مـــن وســـط الـــدار، وهـــو الـــذي لـــم يفعلهـــا مـــن قبـــل, لـــم يـــدخل البيـــت قبـــل أن يطـــرق بابـــه, ويســـمح لـــه بالـــدخول, الرجـــل فـــي وســـط البيـــت ليســـت أخلاقـــه, ولا طبعـــه, نظـــرت إليه من أعلى صحن البيت:

- أيوه يا خال.

ـ انزل يا محمد.

يقينـــا هنـــاك كارثـــة, وجهـــه يقـــول ذلـــك, نزلـــت عـــدوا, وكـــان صـــوت الموقد عاليًا, وأمي لا تسمع شيئًا.

نزلـــت إليـــه, الرجـــل يضـــع رأســـه فـــي الأرض, أخـــذني معـــه خـــارج البيـــت إلـــى "المنـــدرة", متـــرددًا فـــي شـــيء يريـــد قولـــه, تخونـــه الكلمـــات, الرجـــل لا يعـــرف هـــل ســـأقدر خطـــورة حديثـــه, أو لـــن أفهـــم, وأنـــا شـــغوف لأعرف ما يخفيه.

- محمد ماشوفتش خالك منتصر؟

ـ نعم.....!!!!!!!!!! إيه؟! حاشوفه فين يا خالي؟!

- يعني ماجاش بات بالليل هنا؟

ـ لا يا خال

- طيب ما اتصلش بيكم على تلفون العمدة حلمي لبيب؟

محمد خالك منتصر عمل حادثة بالليل في الشرق عند مجرى العيون, والعربية اتقلبت في الترعة, ومش لاقيينه, وبعتوا ناس يدوروا هنا يمكن يكون طلع وجه لاخته.

لم تكن كل كلمة جبلًا ينهار على رأسي, بل كان كل حرف فوق رأسي أثقل من كتلة الكرة الأرضية كلها، فقدت سمعي, وكف بصري, وتاه عقلي, وأمسيت لا أرى جدارًا من فراغ, ولا سماء من أرض, كل ما في عقلي ما حدث بالأمس عند المصرف، وكأنه يخبر آبائه أنه قادم بعد يوم أو يومين، اااه...

وبينما أقف, والرجال صامتون شاردون، لا أعرف ما أقول, ولا يعرف بماذا يعقب، الأمر جلل, وأسوأ ما فيه

كيف سأخبر أمي وكيف ستكون رد فعلها؟!

ربما يكون بخير، ربما فقد حياته, وبين شروده وشرودي, كانت أمي بيننا, وكأنها تعرف كل شيء, وتلم بكل شيء.

اتجهت نحو ابن عمها، الخال "أبوالصفا"

- في إيه يا واد عمي؟

قول فيه مصيبة صح؟

صح يا أبو الصفا؟

حد جرى له حاجة صح؟

الرجل صامت، لا يعرف كيف يبدأ, ولا حتى يعرف كيف ينطق.

وجم الرجل، اتجهت نحوه، أمسكت بتلابيبه,

ـ قول يابو الصفا.

والرجل ما زال واجمًا، تركته إليّ

- في إيه يا ولدي، انطق.

كان عليّ أن أنهي الموقف,

استجمعت شجاعتي، وقلت لها:

- خالي منتصر عمل حادثة في الشرق...

ولم أكمل الشرق,

لتدوي صرخة ترج ما بين المشرق والمغرب, وكأنها نعقة صور يوم الدين,

حاول الرجل أن يهدئها, أنا لم أتدخل, أنا أعرفها, وأعرف من شقيقها, وأعرف ما بينهما, لا أحد يعرف مثلي أبدًا.

حاول الرجل أن يخبرها بأنه بخير، وقال كلامًا كثيرًا هي لم تسمعه, هي لا تسمع إلا شيئًا واحدًا:

"أخوها عمل حادثة".

فتحت الباب النصف موصد، إلى خارجه، ما زالت تصرخ, وتهيل على رأسها التراب، أحاول منعها والرجل معي، تجري نحو الأرض التي يملؤها الماء, تغرف الطين, وترمي فوق رأسها, تلطخ جلبابها, وانكشفت رأسها، فتحت النوافذ, وخرج الرجال, وما بين غمضة عين وانتباهتها كانت القرية كلها حولنا، اختفى الرجل، أحاول السيطرة عليها، لا أنا ولا رفيقاتها يمكننا فعل شيء, ويقينا لا يجرؤ الرجال على لمسها؛ فتلك مهمة النساء فقط.

الجميع شاخص، هي تصرخ فقط, هي بخير, وابنها بخير, وعمتها ها هي تقف في النافذة لا تحملها قدمها على النزول ولا تعرف أيضًا أي شيء، عمتها أيضًا بخير، والبيت بخير، كل شيء بخير، فلماذا تصرخ؟ ولماذا تولول؟ ولماذا تضع الطين فوق رأسها؟ ماذا حدث؟

الموقف لا يخبر إلا عن موت، وليس غير الموت يفعل الناس هكذا من أجله.

لم يسألني أحد؛ فجميعهم يراني مهتمًا أن أجمع شتات أمي, لست مؤهلًا لشيء, ولا للإجابة عن شيء.

اجتمعت الأرض من أقصاها إلى أدناها، رجالها, ونسائها, وشيوخها, وأطفالها, ربما معظمهم لم يتمكن من أن يغسل وجهه أو يستفيق من نومه.

كان الحاج "نشأت" مارًا بسيارته, -والتي كانت الوحيدة بقريتنا-, ومعه أهله، توقف الرجل, وأمر سائقه أن يعيدهم,ة ويعود إليه هناك أمر جلل, هناك لا محالة يشق الرجال, يسأل ماذا حدث؟ لا أحد يمكنه الوصول إلينا, يسأل أمي:

ـ حصل إيه يا ام محمد؟

تستخرج الكلمات من بين عويلها مرهقة,

يجب أن ترد عليه؛ فهو الوحيد في القرية القادر على مساعدتها، وفك طلاسم مصيبتها، لم تقل إلا كلمتين

- أخوك منتصر عمل حادثة في الشرق.

لتعود إلى صراخها وعويلها, ليتجه الرجل إليّ, فيجدني أسوأ حالًا منها، يمسك يدي, وينتزعني منها,

- محمد خليك راجل, وفهمني عشان أشوف حاعمل إيه.

ـ خالي عمل حادثة يا عمي.

- طيب بالراحة يا ولدي فهمني، فين؟

ـ في الشرق يا عمي.

- فين في الشرق يا ولدي؟

ـ ما عرفش ياعمي، خالي أبو الصفا هو اللي عارف.

يترك الرجل يدي, ويسأل الملتفين حوله: أين عم "ابو الصفا"؟! اختفى الرجل، ربما ذهب لمن حضر؛ ليخرجه من هذا الموقف, ويفهم منه كل شيء, لا أعلم من كان الرجل حتى يومي هذا، الذي تبرع بالحضور لقريتنا؛ كي يعرف إذا ما كان خالي قدم إلى هنا من عدمه, لكنه كان قابعًا عند الشيخ "عبدالواحد خلف" في محطة الوقود التي كانت موجودة أمام منزل الحاج "عاطف حمته سلمان", وبنى ابن شقيقه الخال "فهيم" منزلا على أنقاضها.

أحضروا الخال "أبو الصفا" للعمدة "نشأت", وانزوى به جانبًا لدقيقتين, ليعلن بعدها الحاج نشأت للملأ:

ـ قدامنا يا رجالة ربع ساعة كله يجهز، حنعدي الشرق

الأستاذ منتصر عمل حادثة هناك, وإن شاء الله نرجع بيه سالم معافى بإذن الله, حاوصل البيت أعمل كام مكالمة والناس كلها تكون في المعدية.

وأدار عينه كأنه يبحث عن أحد بعينه، حتى وجد الريس "أبو النجا" من بين الواقفين، فأشار إليه:

ــ عم أبو النجا, طلع كل المعديات اللي واقفة دلوقت على ما احصلك.

ـ حاضر يا عمدة.

كنت شاردًا, يهمي الدمع من عيني, لكن كنت أيضًا حاضرًا؛ فأنا رغم سني أكثر الناس ابتلاءً بينهم، فالأمر يخصني أول من يخص.

عاد إليّ العمدة نشأت, وكأنه يرتب لكل شيء,

- محمد يا ولدي تقدر ماتخليش أم محمد تيجي معانا؟

ـ ما اقدرش يا عمي.

- ما انا عارف يا ولدي, ولا انا كمان,

طيب هديها بس وشوف, الموقف موقف رجالة يا ولدي, عايزين نبقى مركزين.

ـ ما اقدرش يا عمي.

ـ ما انا عارف يا محمد يا ولدي, كلنا مش حنقدر.

تركني الرجل وغادر, فكرت في حديثه، نعم, أمي ستكون عبئًا ثقيلًا, ولن تهدأ، كانوا أدخلوها البيت مرة أخرى, تلتف حولها النساء, أمي لا يظهر من طينها سوى عينيها, كل شيء تطيّن؛ وجهها, وشعرها التي تحاول رفيقاتها تغطيته، الطين يملأها من رأسها حتى أخمص قدميها, مستلقية تتناوبها حجور رفيقاتها.

-أما، أما، أما

_ أيوه ياواد,

أبوك مات!

خالك مات!

اتيمت!

منتصر غرق,

مات لوحده!

ماحدش معاه!

منتصر جرفه التيار,

منتصر مش لقيينه ياواد!

منتصر قاعد لوحده دلوقت,

قلتلك روح مع خالك، خالك حيقعد لوحده ياواد,

مرضتش ياواد,

يا ريتك كنت معاه ياواد,

يا ريتك ونّسته ياواد,

ياريتك متّ معاه ياواد,

واستريحت ورميت نفسي في البحر وراكم ياواد,

أنا عارفة مطرح أخويا ياواد, ودّوني لأخويا ياواد,

ياخوووووووووووووووي، يااخووووووووووووي.

إلى يومي هذا لا أعرف من أين عرفت, ولا كيف عرفت, ولا من أخبرها عن كل شيء قبل أن يعرف أحدهم أي شيء عن أي شيء, حتى حين أمر مدير الأمن إبعادها عن المكان، أخذنها نسوة القرية اللاتي خرجن إلى مكان كان أخوها في القاع، وكانت أخته فوقه على الجرف.

اجتمع الرجال عند المرفأ, ملأوا جميع الناقلات؛ رجالا, وشبابا, وشيبة, محركاتها تنقع منتظرة وصول العمدة "نشأت" ومنتظرة أمرًا بالإبحار, الرجال يتهامسون, يتخيلون, يصنعون آلاف القصص والروايات, منهم من جاء مجاملا, ومنهم حزينا, ومنهم متطفلا, ومنهم من قتله فضوله, ومنهم من لا يجرؤ على عدم تلبية أمر العمدة, لكن يقينًا أن أكثرهم حملته شهامته للمشاركة في هذا الحدث الغامض؛ فهم ذاهبون, لا يعرفون ماذا سوف يفعلون, ولا بأي دلو سوف يدلون, هو ربما الموت, وكان الناس وحتى يومنا هذا كل شيء يهون إلا مصيبة الموت, عليها يجتمعون.

كانوا يتفلسفون, ويخترعون أشياء ما كانت ولم تكن.

يقول أحدهم: ربما صدم أحدًا, وقتلوه.

والآخر يقول:

_ يمكن عمل الحادثة, وراح يريح شوية عند حد من أهل القرية

لم يقل الحقيقه منهم أحد قبل أن يعلمها, قطعًا إلا شقيقته التي كانت يقينا تعلم كل شيء,

لقد أخبرها قلبها عن كل شيء, كانت تتصرف كأنها تعلم كل شيء.

حملتها النساء إلى المعدية, وهي تجر ساقيها كمن يُساق لغرفة الإعدام.

وضعوها في المكان المخصص للنساء, كنت أنا الوحيد معها, والمعدية وشقيقاتها تمخر وسط الماء، كانت "الطفلة الحزينة" تنظر في الماء من فتحة المعدية الصغيرة, وكأنها تناجي الماء (سلام قولا من رب رحيم)، أيها النيل الظالم ماؤك، من أين أتيت, وكيف حبيبي احتويت، كانت تتمنى أن يجف النيل من منبعه وأفرعه إلى مصبه، وأن تهبط سفينتنا إلى قاع الأرض, كانت تتمنى أن يجف النيل وراوفده؛ ترعه, ومصارفه, فحبيبها يقبع تحت مائه, يحركه جريانه, كنت أراها تسب النيل ومنبعه, وتسأل الله أن يجفف مرده وأفرعه, لم أكن أعلم أنها تعرف يقينا أن حبيبها أسفله، يقينا أسفله.

وصلنا الجانب الشرقي, كانت سيارة العمدة "نشأت", كيف وصلت؟! لا أعلم, وكأن الرجل طار بها, ركبت أمي وأنا في المقعد الخلفي, وهو وخاصته في الأوسط والأمامي, كان المركز في طريقه, وقف, ودخل, وخرج, في دقيقتين, وقف مرة أخرى, ونزل أحدهم, واستأجر عشرات العربات؛ كي تنقل مئات الرجال الذين تحملهم أقدامهم, ولا يعلمون إلى أين المسير, وما هو الهدف؟! أخبر الرجل رفيقه بالمكان, وأعطاه المال؛ ليتولى عن الناس كل شيء.

وصلنا لموقع الحادث أول من وصل من القرية, قفزت أول من قفز, كان رجال القرية التي بها الحادثة يملأون الطريق, قيادات الأمن أكثر مما يتخيله عقل بعض الرجال, الذين يوحي منظرهم أنهم قادة وكبراء, مئات الرجال زملاء العمل، كنت أعرف بعضًا منهم, عدوت نحو موقعها, السيارة يغمرها الماء, لا يظهر منها إلا مؤخرتها, وأيضًا يغمرها الماء, ضوءها الخلفي ما يزال موقدًا ضد كل قوانين الكهرباء والفيزياء, أبوابها تظهر, ليست جليّة تحت الماء, لكنها جميعها مغلقة.

أعلم يقينا أنه يستحيل فتح الباب تحت الماء, إلا إذا كان اتجاه فتحه في اتجاه التيار, دققت النظر, كان بابه مغلقا, والآخر مغلقا, وعليه يستحيل نزوله من باب السائق تحت الماء؛ لأنه في اتجاه تيار الماء, وإن خرج من الآخر؛ فسوف لن يكون مهتما بغلقه بعد خروجه, ولن يغلق أصلًا لأن غلقه سيكون في اتجاه التيار.

لا تتعجبوا تحليلي؛ فقد كنت صبيا, لا أمرر شيئًا أبدا.

وطيله طريقي, كان عقلي يتبنى كل السيناريوهات, كنت معدًا تلك الأسئلة في عقلي, وأنتظر أن أرى الواقع.

كل تلك الأسئلة لم تأخذ من ذهني برهة؛ ليخرجني منها.

صرخة مدوية لأمي, تلفت نظر الجميع؛ لتتقدم القيادة الأمنية, وتطلب منها الوقوف بعيدا مع نساء القرية الواقفات يحملن أباريق الشاي, وبعضًا من الخبز الجاف, والجبن؛ ليكرمن هؤلاء الضيوف الكثر على ابتلاء مبتليهم, ويساعدن رجال الدولة في التركيز على أداء مهمتهم.

لم تعبأ "الطفلة الحزينة" به, ولم ترَه أصلا, بل أشاحت بيدها عنه, لولا أن تراجع عنها؛ لقذفته يديها إلى الماء.

جرى العمدة "نشأت" خلفها, وكنت أنا في استقبالها, أرادت أن تقفز في الماء تبحث عن أخيها, بذلت قصارى جهدي أن أحتويها؛ فأنا أعلم عمق الماء, وشدة التيار, ولو سقطت ستكون الكارثة كارثتين، احتضنتها بكل ما أوتيت من قوة, اقترب العمدة "نشات" منها, وقال لها:

- حتسيبينا نشوف مصيبتنا ونركز, ولا نقعد ع الشط زي اللي قاعدين يا ام محمد؟

كانت ما زالت تصرخ ورجال الأمن لا يجرؤ أحد من الاقتراب منها؛ فهم رأوا ما كان سيحدث لقائدهم أمام أعينهم.

ما زالت تصرخ, وأنا أحاول إثناءها, كانت لم تزل بطينها, ونفس لباسها الذي جففه هواء السيارة, وأصبح طينًا جافًا, لقد غسلوا وجهها من النيل رفيقاتها قبل أن تركب.

وبينما أحاول, والحاج نشأت يعترض, ظهرت خمس نساء بيننا لا أعرفهن, حملن أمي بلا رحمة, ولا نقاش؛ لتبعدنها من بين الرجال إلى مكان يبتعد عنهم ألف متر تقريبًا, بعد أن رفضت أن تبتعد عن

المـــاء, وأن تقـــف بجـــواره تتوســـل إليـــه أن يخـــرج حبيبهـــا وشـــقيقها, ومـــن هو كل الدنيا لها.

اســـترحت قلـــيلًا مـــن تلـــك المهمـــة, فـــأمي بعيـــدة عـــن الرجـــال, لكـــن مـــا زلـــت أخشـــى عليهـــا أن تلقـــي بنفســـها, حضـــرت إحـــدى النســـاء تأخـــذ طرحتها؛ فقلت لها:

ـ خلي بالك ممكن ترمي نفسها ورا ابنها في المايه.

_ قالـــت المـــرأة: ماتخـــافش يـــا ولـــدي, احنـــا حارســـينها, ماتخـــافش اطمـــن يا ولدي ربنا حيجمعكوا بيه.

اطمـــأن قلبـــي, وقـــررت أن أكمـــل تخيلـــي, كـــان شـــباب القريـــة التـــي منهـــا الحـــادث ينزلـــون القـــاع يبحثـــون ويخرجـــون, خلعـــت جلبـــابي, وقفـــزت معهـــم, المـــاء قـــوي وثقيـــل, وصـــلت لمقـــدمتها, وجـــدت جانبهـــا الأيمـــن محطمًـــا مـــن الأمـــام, لقـــد اصـــطدم بشـــيء, شـــكل الإصـــابة التـــي في السيارة توحي بأنه يقينا اصطدم بشيء.

خرجـــت مـــن المـــاء لأجـــد أهـــل قريتنـــا يصـــلون تباعًـــا, لقـــد رأونـــي فـــي المـــاء, وكـــلٌ يتبـــرع أن يخلـــع جلبابـــه ويقفـــز فـــي المـــاء, وكـــلٌ يأمـــل أن يجـــده, وعنـــدما وجـــد قائـــد الشـــرطة الـــذي كـــان يقـــف مـــع العمـــدة "نشـــأت" أن الأمـــر ســـيخرج مـــن يـــده, وســـيفقد الســـيطرة, عـــلا صـــوته علـــى الرجـــال, ليخبـــره العمـــدة "نشـــأت" أن يكـــفّ, وهـــو ســـيتولى هـــذا الأمـــر, وبصـــوت خفـــيض أمـــر شـــباب قريتـــه أن يعـــودوا فـــي الجانـــب الآخـــر مـــن الطريق, وأن يجلسوا مع الجالسين؛ لينفذوا طلبه فورا.

شعر القائد أنه سيستعيد نظامه؛ فقال له:

- كمان يا عمدة الشباب اللي في المايه.

لا يعـــرف الحـــاج "نشـــأت" مـــنهم إلا أنـــا, اطلـــع يـــا محمـــد دلوقـــت، حد قالك انزل دوّر؟! سيب ده للغواصين أهم واقفين بيلبسوا.

كـــان أمـــره لـــيس لـــي وحـــدي, بـــل للجميـــع, والـــذي تـــولى ذلـــك عنـــه وأكملـــه رجـــلٌ ذو وجاهـــة, أظنـــه كبيـــر قـــريتهم, كـــان يقـــف معهـــم, خـــرج الجميـــع, لبســـت جلبـــابي، ووقفـــت معهـــم, لـــم يعتـــرض أحـــد مـــنهم علـــى وقـــوفي، كنـــت أقـــرب أقربـــاءه مـــن الـــذين وصـــلوا, فلقـــد بـــدأ أخـــوالي يتوافـــدون رجل خلف رجل.

وقفـــت معهـــم صـــامتًا, ونـــزل الغواصـــون بـــزيهم وكمـــامتهم واسطواناتهم.

- قائد المسطحات: احنا لازم نوقف التيار في الترعة يا باشا.

ـ يعني نعمل ايه؟؟؟؟

- نقفل الخمس هوايس من قبل الأقصر لغاية هنا.

ـ ازاي انت عارف إن ده من سلطة المحافظ.

- منا عارف يا باشا لازم وزير الري.

ويجه لرجل آخر: هو صعب حضرتك تكلمه؟

ـــ الآخـــر: لا يـــا باشـــا أنـــا وكيـــل الـــوزارة, والطلـــب ده لازم يدعمـــه المحـــافظ, وده مـــش مهـــم, الأهـــم احنـــا حنســـتنى قـــد إيـــه بعـــد الموافقـــة علشـــان نهـــدي التيـــار مـــش نوقفـــه, أقلهـــا 3 أيـــام, دي الموافقـــة لوحـــدها لو عرفنا النهارده نجيبها يبقى كويس.

- القيادة: أنا المحافظ قال لي اي حاجة عاوزها قول لي.

وكيـــل الـــوزارة: فـــي مصـــيبة تـــاني دلوقـــت, فيضـــان, يعنـــي لـــو قفلنـــا المايه حتاخد في وشها كل الزمام والزرع اللي فيه.

القيادة الأمنية: طب دي أرضك يا باشا أدينا خبرتك.

وكيـــل وزارة الـــري: أولًا لازم تشـــغلوا الحـــس الأمنـــي هـــو تحـــت ولا فوق.

ـ تمام ياباشا,

نعقـــد علـــى جنـــب, ونحســـب ســـرعة التيـــار, ووزن الرجـــل, ونشـــوف المســـافة اللـــي ممكـــن جرفـــه التيـــار فيهـــا, ونحـــط شـــبك بثقـــل علـــى أقصـــى مســـافة يمكـــن أن يمشـــيها, ونقـــوم بمســـح كـــل تلـــك المســـافة غوصًـــا, وان فشلنا سوف يطفو خلال ثلاثة أيام.

القائد يتوجه لقائد المسطحات: _ ممكن يا باشا؟

الرجـــل ينظـــر إلـــى الطريـــق، والـــذي يقـــف عليـــه مـــا يربـــو مـــن عشـــرة آلاف شخص، ويتوجه بالحديث للقيادة الأمنية:

- بالمنظر اللي ع الطريق ده يا باشا كل حاجة ممكنة.

القائد: يا ريت الناس بس, وسكت.

الجميـــع صـــامت وهـــم قـــد قبلـــوا وقـــوفي؛ لمـــا رأوه منـــي مـــع أمـــي, والقفـــز فـــي المـــاء, وأيضًـــا لـــم يعتـــرض الحـــاج "نشـــأت" علـــى ذلـــك, بـــل

كان من وقت لآخر يكلفني بشيء ما؛ فعرفوا أنني ممن يهمهم الأمر, رغم أن هيئتي لا توحي بأن من يبحثون عنه له علاقة بي.

وفي لحظة صمت بينهم نظرت للقائد وقلت له:

- ممكن ملاحظة يا بيه؟

لم يلتفت.

يرد الحاج "نشأت":

ـ إيه يا محمد؟

- بص يا عمي الحاج, أبواب العربية مغلقة لا بابه حينفتح لأنه في اتجاه التيار, ولا هو لو نزل من الباب التاني حيتقفل.

ـ يعني إيه؟

- يعني خالي برا العربية قبل متقع في المايه.

نظر العمدة "نشأت" للرجل, وحاله يريد أن يقول له كلامه صحيح، ليرد الرجل مستهترًا بقولي:

ـ صح يا عمدة يمكن طلع من الشباك،

فأكملت أنا: والعربية مخبوطة على الجنب اليمين، يعني خبط حد قبل ما ينزل, وحاجة جامدة مش شخص.

ذهل عمي "نشأت":

ـ عرفت ازاي يا محمد؟

- ما أنا نزلت تحت وشفت يا عمي

نظر للقائد الذي تمنّى أن يلقيني في الماء,

ـ قال له: ما احنا عارفين اللي حصل يا عمدة, هو فوجيء بعربة "كارو"، ليس بها ضوء من الخلف, حاول أن يتفاداها؛ فاصطدم بجانبها من يمينه, ولكي يعيد السيارة لليسار مرة أخرى فقد السيطرة عليها، وسقط بها في الترعة, احنا متحفظين على العربة الكارو قدام يا عمدة, وواقف عليها واحد عسكري، سائقها تركها وهرب, ومش وقته ندور عليه.

نظر إليه العمدة "نشأت" شرزًا ولم يعقب:

ـــ إزاي مـــاتقولش حاجـــة زي كـــده، وســـرح يفكـــر فـــي كـــل الســـيناريوهات المطروحـــة, وتركـــه يفكـــر بمفـــرده؛ فالرجـــل لـــيس أمينًـــا، كـــان يفكـــر بمفرده؛ فالأمر جد خطير.

بـــدأت الســـماء تهـــبط رجـــالا مـــن كـــل مكـــان, وامـــتلأت الأرض بمـــا رحبـــت بشـــرا, ووقـــف الطريـــق الســـريع, وبـــدأ اليـــأس يـــدب فـــي القلـــوب, ويـــذهب الأمـــل مـــن الرجـــال, ويـــزداد الوضـــع ســـوءًا, وتهـــدأ العـــزائم، وكلمـــا التهبـــت الشـــمس, ذهـــب أحـــدهم لظـــل شـــجرة يحتمـــي بهـــا, ومـــلّ الغواصـــون؛ فـــالعمق كبيـــر, والعـــرض أكبـــر, وهـــم لا يعلمـــون إن كـــان هنا أو لا.

مـــلّ النـــاس, الكـــل يريـــد أن ينهـــي الموقـــف ســـلبًا أو إيجابًـــا, رغـــم آلاف المتنـــاثرين، أغلقـــت الحـــرارة أفـــواههم, وخـــرج أهـــل القريـــة للضـــيوف بطعـــامهم, كـــل تجمـــع تحـــت شـــجرة تـــذهب إليـــه باقـــة مـــن الطعـــام, ومعهـــا الأكواب والشاي.

الكل يريد للموقف نهاية.

أصـــبح الصـــمت هـــو الســـائد, لا يقطعـــه إلا صـــرخة مـــن قلـــب شـــقيقته, اعتـــاد النـــاس عليهـــا, ولـــم يعـــودوا حتـــى للنظـــر تجـــاه مصـــدرها؛ فالصـــرخة واحـــدة, والصـــوت واحـــد, والمصـــدر واحـــد, يتمنـــون ألّا تـــزعجهم بهـــا, يســـألون أنفســـهم: ألـــم ينلـــك ممـــا نالنـــا مـــن جهـــد ومشـــقة؟! ألـــم يلجمـــك هـــذا الحـــر وتلـــك المشـــقة؟! مـــن أيـــن لـــك قلـــبٌ ولســـانٌ مـــا زال قـــادرًا علـــى ذاك الجهـــد والصـــراخ؟! وودت أن أقـــول لوجـــوههم التـــي أقرأ فيها كل ما تقول أعينهم:

أنـــتم لـــم تـــروا حزنًـــا إلـــى الآن؛ فأنـــا أعلـــم كيـــف ســـيكون حـــزن شـــقيقته إن مات أصلًا,

هي إلى الآن أيها الأغبياء لم تحزن, ولم تصرخ, ولم تتألم.

كانـــت الثالثـــة عصـــرًا, أو مـــا يقـــرب, وقبلهـــا بســـاعة جـــاء رجـــلٌ "بفلوكـــة", لا يزيـــد طولهـــا علـــى المتـــرين, ووقـــف علـــى الشـــاطيء, ونادى على القادة الواقفين على الشاطيء:

- يا باشا مسموحلي أدور معاكم بعيد عن البهوات الغطاسين؟

لـــم يـــرد عليـــه كبـــرائهم, تقـــدم نحـــوه ضـــابط صـــغير, وســـأله فـــي عـــزة وترفع:

ـ حتعمل إيه يعني؟

فأخبره أنه سيمرر السنار في قاع الترعة عساه أن يلتقط الرجل أو يلتقط ملابسه، لم يفهم الضابط شيئًا,

ولكنه أشار لقائده الذي أومأ برأسه موافقًا, وتقدم نحوه وسأله:

ـ فين السنار ده؟

ليخرج الرجل من قاعه خيطًا طويلًا به مئات من الأسلاك الصلبة المعقوفة المدببة, والتي تعتمد فكرتها أن تمر الأسماك بجوارها فتخترقها, ولا يمكن أن تتخلص منها؛ لأنها مصممة بطريقة أنها تدخل ولا تخرج إلا بعناء شديد.

ـ سأله القائد: ودي ممكن تمسك حد تحت؟

ـ فرد الرجل ساخرًا: وفوق كمان يا باشا.

أحزنتني الطريقة كثيرًا, لكنني كنت مثلهم، أود أن ينتهي الأمر, وإن كان قد قضي الرجل، فلن يضيره شيئًا أكثر من الموت.

نظر القائد إلى العمدة "نشأت" الذي نظر بدوره إليّ؛ لأنه يعلم أن أخوالي لم يعرفوا السنار, ولم يروه أصلًا من قبل, وضعت رأسي أرضًا, وكأنني لم أفهم أن الرجل يريد أن ينأى بنفسه عن هذا القرار، وأخوالي يراقبون

الموقف لينهي العمدة "نشأت" الموقف مخاطبًا الفتى:

ـ اتوكل على الله يابني، بس خلي بالك فيه غواصين تحت.

ونظر إلى قائد المسطحات الذي كان يفتح أزرار بذلته هربا من القيظ، فأشار إليه أنهم على أقصى تقدير بعد خمسين متر في اتجاه سريان الماء.

نادى الرجل على أحدهم يعرفه، ركب معه, وانطلقا أحدهم يجدف والآخر ينظم خيطه ويفرده, لم يبالِ بهما أحد من هنا ولا هناك, بل نسيهما الجميع.

بعد ساعة ونصف, ولا أحد يعلم شيئا عنه, ووسط الزمهرير, الساعة الثالثة والنصف, تنطلق صرخة لم تكن من السيدة التي اعتاد الناس صراخها وعويلها, وكرهوا أيضًا تلك الصرخة, لم تكن صرخة امرأة, بل صرخة رجل يصرخ بأعلى صوته:

ياهوووووووه, ياعالمممممممم, ياهوووووووووه.

لتدب الحياة في عشرة آلاف من أهل الكهف، نصفهم نائمون تحت ظلال الأشجار, "وكأنهم خشب مسندة", ألف سيارة تقف على جانبي الطريق، الصرخة من بعيد بعدها ألف متر أو ما يربو، كل شيء تغير، مشهد يشبه ويلات الحروب.

الكل يجري, من يبحث عن حذاءه, ومن لا يعرف كيف يلف عمامته, ومن تمكن من الجري نحو الصرخة، أمي تصرخ بين هذا المشهد الذي يشبه يوم الحشر، أعرف صوتها, أعدو نحوها, أخاف عليها أن تلقي بنفسها, عرفت يقينًا أن أحدهم وجده, تركت نعلي, وظللت أعدو, لا تشعر قدمي لهيب الأسفلت؛ فقد كانت سرعتي تمنع قدمي من ملامسة الأرض.

اصطدم بالرجال, والأطفال, والشيوخ, والقادة, والساسة, والشيبة, والشبان, جميعهم يجري -كحمر مستنفرة فرت من قسورة-.

مشهد لا يختلف كثيرًا عن مشهد يوم أن يخرج الناس من الأجداث كأنهم جراد منتشر, جميعهم يجري إلى أرض المحشر, كانت أرض المحشر مكان صراخ الرجل الذي يتناوب فيه الصراخ وأمي.

كنت أول من وصل، أمي تحاول أن تقفز إلى الماء ، عشر نساء أقوياء تمنعنها عن أي شيء, إلا أن تصرخ وحسب.

نظرت إلى الماء، وقف شعري، الرجل فوق سبكة "قاربه", يريد أن ترى الدنيا كرامة الرجل، وماذا حدث معه للرجل وما زال يصرخ ، يرفعه الرجل بخيطه فوق سطح الماء؛ ليراه كل راء, ويشهده كل شاهد, ليس العظمة أنه وجده, وهناك عشرات المحترفين يبحثون عنه؛ العظمة كيف وجده، العظمة أن يراه الناس، كيف السنار التقطه, أراد أن يرى الناس أن بقدرة الله وحفظه أمسكت به مشابك خيطه, إحداها في طرف أسفل بنطاله, والأخرى في ياقة قميصه, وكأنها لم تتجرأ تلك الحديدات التي تغوص تحت الماء صماء عمياء أن تلمسه وأن تصيبه، أبت أن تخترق جسده الطاهر أبدًا، أبت إلا أن تخرجه إلينا بكرامة الصالحين, وعظم الأنقياء الأتقياء الطاهرين.

كان الرجل يقبع تحت الماء, وشقيقته فوقه فوق جرف الماء, وربما جرفه الماء, وعاد إلى جرف تنتظره عنده شقيقته.

كان لا يفصلهما إلا أمتار, يمنعهما الماء من رؤية بعضهما.

نعم, كانت الطفلة تعلم أنه رحل, بل وكانت تعرف أين يقبع تحت الماء, كانت تعرف كل شيء.

- رحمك الله خالي الحبيب –

تبعثر كل شيء, لم يعد أحدهم يعرف مع من أتى ولا كيف يعود، فَقَدَ القائد عسكره، والوزير بطانته, كل منهم فَقَدَ أباه, وابنه, وأخاه, وفصيلته التي تؤويه، اختلط هناك كل شيء, لا تعرف أن تميز بين غني وفقير, الكل فرح وحزين, ما أصعب أن تجبرك المواقف على كليهما.

أخرجوه, لا أذكر إلا شيئين، قلب أمي يغادر صدرها, يقفز فوق نهدها, يطير؛ ليحتضن شقيقها, ويعود, تمنعها النساء عن فعل أي شيء, كانت موثقة اليدين، مكبلة القدمين, تطوق أذرع النساء جيدها وخصرها, هن يعلمن أنهن لو تركنها سيحدث ما لا تحمد عقباه, وصدم الرجال, لن يمنعها كان من كان أن تحتضن حبيبها, تقبل كل شيء فيه, تضمه لصدرها, يعلمون جيدًا أنهم لو تركوه لالتصقت به, ولن تبعدها عنه قوة في الأرض, كنت أنظر إليها تارة مشفقًا على ما هي فيه, وأنظر إليه مشفقًا على ما هو فيه, حلم لا يطاق, كابوس لا يصدق, لا تستطيع إدراك شيئ, وتدرك أيضًا كل شيء, كلما أردت أن أقبل عليها لأخلصها أخشى أن أفقد قدرتي على ذلك.

أما الموقف الآخر, وجدت بجواري الحاج "نشأت" تهمي عيناه, فَقَدَ الرجل كل شيء, فَقَدَ قوته، عواطفه فضحت ثقله ورزانته, الرجل يبكي كطفل أخذوه من أبويه.

كنت أصرخ من قلبي, كنت مدركًا لكل شيء, كنت أرى كل شيء, وأيضًا لا أرى شيئًا.

كان الموقف مهيبًا غائمًا, لا تعرف بدايته من منتهاه, كان يجب أن يوثق كأعظم مشهد في التاريخ.

جاءت عيني في عينه: تماسك سيدي؛ فالوضع جد خطير, لا أحد لها غيرك, فهم الرجل ما قالت عيني, شدني من وسط العباد الشاردين, وبصوت يملأه الدمع:

- حاول يا محمد إنك تركب الوالدة في العربية, واركب معه في سيارة الإسعاف.

شكرت الله في نفسي, ها هو الرجل استعاد قوامته وفكره, أدرك أن الموقف يحتاج عقلا وإرادة, وأردت أن أخبره بأن هذا الوقت ليس وقت الانهيار, الموقف يهزم أعتى الرجال, وأنت سيد الرجال في بلاد ليس لنا فيها جاه ولا مال.

عدوت نحو أمي؛ لأنفذ أمر الحاج "نشأت", فوجدت الأعجب؛ وجدت نسوة القرية وهي معهن, كانت هناك سيارة معدة من أهلهن؛ تحسبًا لهذا الموقف, وأخبروهن أنه إذا تم انتشال الجثة لايتركنها, ويذهبن معها ولو كانت في آخر بقاع الأرض, كُنَّ نساء تشبهن الرجال, وكانوا رجال بآلاف الرجال.

كلما مررت على قريتهم "السبع عيون"، أقف أمامها, أقرأ الفاتحة لخالي, وأتوجّه ببصري نحو القرية ملقيًا عليها السلام, وأقول لترابها هنا عاشت نسوة نعدهنّ بآلاف الرجال, سلام على قريتكم، سلام على النساء فيها والرجال.

أدخلت رأسي من النافذة, أمي تتوسطهن, والعربة جميعها نساء, -إلا قائدها-, وأمي تصرخ, أحاول إسكاتها, ولكنها لا ترى شيئًا, ولا تعرف حتى من يحادثها,

لترد إحداهن:

- "ماتشغلش بالك يا وليدي, احنا مع البنية لغاية آخر أرض الله"

أذهلني فعلهن, وأذهلتني مروءتهن, كانت أمي المرأة الوحيدة بين الرجال, وأذهلني رجال قريتهم الذين أرسلوا نسائهم إلى أرض لم يطئوها من قبل, ولكن أيضًا كان رجالهن يسبقوهن.

كل القرية خرجت معنا, لم تتركنا من الكبير إلى الصغير, بل نسائهم وربما بناتهم.

غادرت سيارة الإسعاف التي شقت طريقها جاهدة بين الجموع, ولم ألحق إلا بسيارة "نصف نقل" محملة بالرجال, حملوني فيها, يهدئ من روعي من أعرف ومن لا أعرف.

لكن إلى أين؟ يقينًا لمستشفى قوص المركزي.

كان طابور من السيارات, أوله مكان الواقعة, وآخره عند مركز شرطة قوص؛ لإكمال المحضر, وجثمان الخال الحبيب مسجى في السيارة؛ للكشف الظاهري عليه.

أنا لا أهتم إلا بشيئين، أين أمي تكون؟ وأين الحاج "نشأت" وسط هذه الآلاف؟

فالوضع خطير, والحكومة تعرف مكانة الرجل, ويقلقها أيضًا هذا العدد الذي لم يروه من قبل, وهناك اهتمام من المحافظ ومدير الأمن, بل ومتابعة من وزراء. الموقف يجب أن ينتهي بأسرع وقت وبدون أخطاء؛ فيقينًا الكل متوتر, لكن من سيجيد التعامل مع هؤلاء وهؤلاء, إنه رجل المهام عمي الحاج "نشأت", -رغم صغر سني- لكن كنت يقينًا أميز بين من يفعلون ومن يتحدثون, وبين من يتقدمون ومن يتراجعون, -رحمهم الله- الثلاثة جميعهم. وسألت نفسي:

_ إزاي الحاج نشأت اتعامل مع وكيل النيابة، وإزاي حيعدي في المعديات 5000 شخص ع الأقل؟!

اقترب الليل على المجيء, وفي آن واحد كانوا بقية أخوالي في صدمة ليس بعدها صدمة, ذاهلون صامتون, ربما يبكون, لا يصدقون, ينتحبون, ثم لصمتهم يعودون, شاردين يذهبون لغد لا يعرفه إلا الله, ثم لنحيبهم يعودون, يتململون ويصرخون, ثم لصمتهم يعودون.

كان الأمر يقينًا يحتاج لمن يديره, وليس هناك أهلًا لذلك إلا العمدة "نشأت"

استعاد الرجل تماسكه، يتحرك بين عشرة آلاف من الرجال, دخل المركز, كنت أتبعه، كنت أقف على باب المأمور, جلس معه, أرسل أحدهم يستعجل شخصًا ما, مرت عشر دقائق, دخل رجل بحقيبة, توحي هيئته بأنه ربما يكون طبيبًا, جلس معهم, وكنت أسترق السمع, كان بالحجرة العمدة "نشأت", ولا يقل عن عشرة رجال, أعمارهم ولباسهم يوحي بأنهم أناس من خارج المركز, كانت جلستهم وصمتهم يوحي بأنهم موفدون للوقوف على شيء أو إنهاءه.

دخل الرجل بحقيبته, تعلقت به أنظارهم, اتجه إليه المأمور وقال له:

- طمنّا يا دكتور.

ـ كله تمام يا باشا, أزمة قلبية ومافيش شبهة جنائية.

"المأمور مذهولًا":

- إيه؟! أزمة قلبية؟! إزاي يا باشا، ده الراجل مطلعينه من المايه قدامي؟!

ـــ حاقول اللي حصل لحضراتكم بالضبط, صدم الرجل العربة الكارو, حاول أن يفاديها، جنحت منه السيارة, أراد إعادتها, فقد السيطرة عليها، قفز منها قبل أن تسقط, وقع على الجرف, هول الموقف أصابه بأزمة قلبية, مات على الجرف قبل أن يسقط في الماء.

- وإيه الدليل على كده يا دكتور؟

_ ده شغلي يا باشا.

"ليصرخ فيه أحدهم:

ـ ده مش وقت شغلك يا دكتور, كمل.

انتفض الرجل وقال:

- تمام ياباشا, أعراض الأزمة القلبية واضحة تمامًا على جثمانه, والوفاة قبل السقوط يؤكدها أنه لا توجد نقطة ماء في جوفه؛ فلو سقط الرجل قبل موته لامتلات بطنه ماء.

ـ يعني أكيد مفيش شبهه جنائية؟

- مطلقًا يا باشا, أنا مش حودي نفسي في داهية.

وهو ينظر للمبهمين الجالسين كأنه ينتظر قرارهم, ولم يكن ردهم إلا إيماءة من رؤوسهم.

نظر الرجل إلى الطبيب ووجه أوراقًا تجاهه وقال له:

- سجل تقريرك يا دكتور هنا ووقع.

انتهى الرجل من حديثه, وهناك بعض من حوار بينه وبين العمدة "نشأت" يخبو ويظهر من حين لآخر.

فكرت في قوله, نعم لم يكن الخال الحبيب منتفخا مثل أبناء قريتي الذين رأيتهم من قبل وهم يخرجونهم غرقي من النيل, كلامه يقينًا صادق, لا حاجة له في الكذب.

قام بعض من الرجال المبهمين الجالسين مغادرين, وقف الرجل معظمًا لهم دون أن ينطقوا عن شيء.

بقى في المكتب آخرين والعمدة "نشأت".

المأمور: أنا كلمت وكيل النيابة، حيطلع معاك ضابط بالمحضر يمضي تصريح الدفن, وربنا يلهمكم الصبر يا عمدة, ولو احتجت أي حاجة أنا وسط البشر اللي برا دول, ربنا يعدي اليوم ده على خير.

العمدة نشأت: تمام, إن شاء الله كل حاجه حتعدي.

خرجنا من المركز, كان بجواره مبنىً -أعتقد أنه مبنى الصحة-, كان الجسد الطاهر مسجى في غرفة ما، وأنا لا أترك الرجل, وفي طريقه قابل أحدهم ووشوش في أذنيه بصوت أسمعه:

ـــ معديات نقادة الأربعة يتربطوا في الشرق بلغهم بكده، والتلاته بتوع طوخ.

وتركه, دلفنا في مبنى لا أذكر تفاصيله ولا موقعه في نفس المكان المسجى به الخال الحبيب.

غرفة أنيقة، ومكتب يجلس عليه أحد الرجال عمره لم يتجاوز الأربعين، يجلس الضابط والعمدة "نشأت", وأنا كعادتي على الباب

ينظر الرجل إلى الضابط الصغير:

- هو الدكتور كشف عليه امتي

ـ من شوية، ولسا قاعد مع المأمور، أتصل أجيبه؟

- لا بس أنا قلقان، كنت عاوز الطب الشرعي يبص بصه.

لينتفض الأسد من مقعده ويقول له:

ـ طب مين يا باشا؟

انت مش عارف مين اللي ميت ده؟

وقام من مقعده, ليتدخل الضابط محدثًا وكيل النيابة, موحيًا له بحجم المسؤلية قائلًا:

- يا باشا فيه تحت بشر من المزلقان للبحر، اعمل الصح اللي تشوفه يا باشا.

عاد وكيل النيابة لحديثه مع الحاج "نشأت":

ـ عارف يا عمدة, بس دي إجراءت إنفاذ القانون.

- بص بقى من الآخر، أنا ممكن أنزل آخده وأدفنه وأخليهم يخلوك تجيب تصريح الدفن بنفسك لغاية عندي في البيت, تمام!

ـ فين بطاقته يا عمدة؟

- مافيش.

ـ طيب ماعلش مليني الإسم يا عمدة.

ووقع تصريح الدفن.

خرج الجثمان في هرج فاق هرج انتشاله, كنت أحمل في كل الأوقات هم عبور النيل لقريتنا, ولكن كيف أخاف ومعنا الله يسخر رجلًا كفيلًا بكل محال، الحاج "نشأت"؟!

وصلت إلى الشاطيء, كان الرجل يدير كل شيء, ومعه من اختارهم لذلك, وكنت منهم, كنت أنفذ أوامره, والدمع مني يسيل؛ فلقد اعتاد الرجل على هيئتي تلك من الصباح, كنت في تلك الفترة صديقًا لأخي "أيمن", وكنا نقضي وقتًا طويلًا في منزلهم, وكان الرجل -رحمه الله- يكلفني أحيانًا بمهمة صغيرة إذا قابلني في وجهه,

- محمد افتح الباب القبلي للناس اللي واقفة، محمد اطلع هات مفاتيح العربية من فوق، حاضر ياعمي، حاضر ياعمي.

كان الرجل قريبًا من قلبي, وقلبه قريب مني.

طلب أن تقف سيارة الجثمان آخر عربة، ووصلت للشاطئ, لأجد سبع معديات ملتصقة في بعضها التصاق التوائم الملتصقة حتى وصلت لنصف النيل, بوبها في ممر واحد, محركاته تعمل بقليل من الدفع يسمح لها أن تقاوم تيار الماء, كانت كسفينة نوح,

يقفز الناس إليها هربًا من الطوفان، الجميع يرغب في المشاركة، حتى إن لم يجد ما يرده, وبعضهم أصلًا قادمون من الضفة الأخرى؛ لتتحول جميعها إلى كتلة من البشر غطت أعلاها وأسفلها، كانوا يشبهون تجمع أسراب النحل المطرد، أو قطار من قطارات الهند التي يغطي الناس أسطحها، منظر كنت أتمنى أن ألتقطه كما كان، فمن شدة الزحام كان يصعب على ربانه أن يدير دفته, والأدهى كان نصفهم على الشاطيء لم يجد له موطأ قدم.

كنت مشغولًا أن تسقط إحداها في قاع النيل السحيق, كانت ستبقى كارثة.

ذهبت جميعها, وعادت لتحمل الجسد المسجى, ونفس العدد الذي سبق.

لم تترك الطفلة الحزينة أخاها أبدًا، تركوها, سمحوا لها رفيقاتها أن تخرج من العربة، تطوف حول عربة تحمله، تناجيه, وتحاكيه, وتحدثه:

- كلمني يا منتصر,رد عليا يا اخوي، اختك مالهاش حد غيرك يا واد,رايح فين؟ حتسيبني لمين؟ لوجعي؟ حتسيبني لحزني؟ حتسيبني لناري؟ اااااه يامنتصر ااه يابويا واخويا وولدي.

مر كل شيء بسلام, كان المشهد مبهرًا, اجتمع أهل الشرق والغرب في مشهد لم ترَ عيني قط مثله, وكأن الأرض اجتمعت على وداعه، كان بعضهم عاشقًا يودعه, وبعضهم قريبًا ما حدث يؤلمه, وبعضهم صديقًا أو زميلًا، عزت عليه فرقته,

وبعضهم قتله فضوله يعرف ما حدث, ويرى ما يحدث.

من هذا المشهد ما زال شئ لا يفارق خاطري, شققت الصفوف, ودخلت البيت إلى موضع غسله، مُنع الجميع عن ذلك, إلا أنا وبعض من إخوته, كان باسمًا رائعًا, لم يفقده الموت عزته, لم يفقده الموت جلاله وهيبته, كان مسجى وكأنه شخص بيننا ارتقت مكانته.

مشهد لن يفارق مخيلتي، مشهد لن أنسى رهبته

حملوة إلى داره الجديد, والكل يودعه, كلهم يؤدي ماعليه فعله, إلا تلك الطفلة حبيبته, شقيقته, رفيقة يتمه وحزنه وبهجته, عادت فتطينت من دون النساء, أحضرت كحلها وسودت وجهها وجيدها, وكان بالأسود أيضًا الوشاح, حزمت وسطها بحبل, تعلن

للدنيا من بعده أن لا رغبة في البقاء, كانت كل شيء فيها سواد في سواد، كان طينًا, كان الهباب, تصرخ لا يمنعها أحد, ولا يقترب منها أحد, جن جنونها, وذهب عقلها, وليس على المجنون من عتاب, تناديه, وتصرخ, ولا مجيب، تحدثه عن ألم الفراق, وأي شيء سوف يسليه، تسأله الحنين والشوق إليه، من ذا الذي سوف يطفئه ويهدئه, عن طفلها من سيرسم بسمته, ومن يربيه؟!

كان صراخها يرج الأرض وما حوت, يوقظ موتاها, يخيف الطير في الأعشاش وفي الحجب.

كن يصرخن جميعهن, لكن كنت لا أسمع إلا صرخة واحدة, أعرف صدقها وحزنها وجرحها, كانت كل النساء تصرخ, ولا أسمع إلا صراخها, أود احتضانها، تقبيلها، أخبرها أن كل شيء هالك, كفاك, ربما تموتين, سأفقد حينها كل شيء, إن كان هو حبيبك ليس لك أحد غيره؛ فأنا مثله ليس لي أحد غيرك.

خرج الرجل, وخلفه الدنيا كلها, دفن الرجل؛ فتعطرت الأرض لقدوم جسده, وهللت السماء لروحه, وتهيأ أهل القبور لمقابلته, دفن الرجل واستراح, وترك كل العذاب لمن أحبوه وعرفوه, لكنهم يومًا يقينًا سينسونه, وتأخذهم الحياة إلى ما يشغلهم, وربما لا يذكروه, إلا حبيبته, التي سألتها يومًا عن سر هذا العشق؛ فقالت قولتها المحفورة في ذاكرتي:

- "الزوج موجود والإبن مولود والأخ مفقود يا ولدي".

جميعهم نسوا إلا هي, ماتت ولم تزل ترثي أخاها، بكاءً, وشعرًا, وحزنًا, كأنها ألف ألف خنساء.

مات الرجل, وما زال نابضًا في قلب حبيبته، مات الرجل, وما زال شاخصًا أمام ناظري شقيقته, مات الرجل, وما زال منقوشًا على راحتي رفيقته, مات الرجل, وصدق الناس جميعهم, إلا فقيدته. - رحمه الله -

هل تقف الحياة مع كل هذا الوجع, لن تقف، عاشت "الأميرة الحزينة" بحزن لا يفارقها, ودموع لا تنضب منها عينها أبدًا, لم أرَ شخصًا كان من كان كل عمره يبكي مفارقة أحدهم إلاها, بكته حتى التقته بين يدي الله.

لكن مع ذاك الحزن, وذاك المرار, أصرت أن تكمل, ولا تتوقف.

وبين حزنها وألمها, بدأ صبيها في فترة المراهقة، مات أبوه وخاله, وهو لم يبلغ السادسة عشر, وهو الآن لا أحد يكبح جماح صبوته, ولا يرد جماح شقوته وشقاوته, أول مرة ذاك الصبي الذي أدرك أن لا أحد سوف يحاسبه يدخن سيجارة في عزاء خاله, والذي كنت اتلفت حولي في عزاءه, ربما تراني روحه, أو نظرته.

أمي ليس لها جهد أن تقوم ابنها, هي لا ترى ولا تسمع, شاردة باكية حزينة, لم تعد أميرة من بعد فراقه.

هذه المرة, بعد أن رحل الراحلون, تاركيها للهجير والظنون, لم تترك بيت أبيها, تشتنشق فيه عبق أخيها, وتجتر الذكريات الجميلة, فيه تشتم أرضًا وطئها بقدمه, وجدرًا لمستها كفه, وتستنشق هواء ربما بقي من زفيره شئ منه.

مرت الأيام عليها مثقلة بالهموم, مات حبيبها, ورفيقها, وشقيقها, وكل شئ في الدنيا لها.

تقدم شقيقها "تاج"؛ ليتولى الريادة مكان شقيقه, وأول ما تولي مقاليد القيادة جاء إليها وسألها:

- انتي ليه بانيه فرن خبيز هنا؟!

في قطعة أرض كانت باسم أبيه الشيخ "أحمد", دفع ثمنها عند شراءها أبوه الشيخ "محمود", وشاركت شقيقته "الأميرة الحزينة" بربع ثمنها من مال ادخرته من ما كان يعطيها إياه أبوها وعمتها -رحمهما الله-.

نظرت إليه شاخصة: ماذا تقول؟! مذ متى والرجال أول بلوغهم يترجلون على شقيقاتهم, على من ربوهم؟!

ولم تنطق، دخلت بيت الخال "أبو الصفا" بدون استئذان, وأحضرت معولا هدمت الفرن به بهمة عشر رجال, كانت تزرع الأرض ببعض من أشجار الفاكهة, اقتلعتها, ولم تترك إلا شجرة لوف كانت بها, ودومًا كعادتها تخرب أي شيء عمرته مع أول كلمة تجرحها, وحتى يومنا هذا تلك الأرض خربة.

لكن الرجل يقينا أصلح في نهاية عمرها كل شيء, كان يدمع حين مرضها دمعًا يغفر له ما سلف.

كانت امرأة قوية مع ضعفها, وعنيدة مع نقاءها وطهرها, وعنيفة مع حنانها ورقتها, ورثت منها كل شيء, كل شيء.

-رحمها الله-

مرت الأيام ثقيلة تشبه بعضها, لم تتحمل عمتها التي تقدم بها العمر أن تبقى في بيت أبيها, طلبت منها أن تحضرني ومتاعها الذي لم يزل في بيت "سعيد", ونمكث معها, وبهذا يصبح استقرارنا في بيت واحد؛ فبيت أبيها عاد كأرض قفر, ضاع الأهل, وضاع الحب, وبقيت أطلال من الألم والحسرة.

أخبرت عمتها أنها ستفعل ذلك, لكن ستبحث عن مكان تؤجره؛ لتضع فيه أثاثها ومتاعها؛ فلقد طال بها العهد في ذلك البيت, والناس على أدبهم لم يطلبوه مرة, ولم يوحوا بذلك لها،

تعجبت عمتها وقالت:

- إيجار إيه يا بتي, بيت عمك حلمي تجري فيه الخيل, يشيل عفشك وعفش البلد كلها.

ـ أنا مودهوش واستنى حد يقول لي شيلي عفشك من هنا, حنبيع البيت, محدش يكسر بتك ياعمتي.

- فاهمة يا لواحظ, حاكتبلك البيت باسمك واسم ولدك, هو أولى بيه, ع الأقل بتاع جدوده.

ـ لأ ياعمتي, مايخدش بيوت من حد, بيوت مانفعتش صحابها, ولا حتنفع حد تاني, ولدي حيكبر, وحيبني بيوت في كل الدنيا, - ربنا يطول في عمرك يامّا وحتشوفي ده-.

التفتت عمتها نحوي وقالت:

- محمد يا وليدي, روح نادي ع الشيخ "عبد الرازق".

لتسألها ابنتها:

_ ليه يا عمتي؟

- مالكيش دعوة يا لواحظ.
- يا أبو محمد اكتب بيت الشيخ "حلمي" دلوقت باسم لواحظ وولدها بيع من شراء.

ـ أنا قلتلك محمد مايخدش حاجه من حد.

فأشارت إليه:

خلاص يا شيخ عبد الرازق اكتبه باسمها ملك ليها حتى نهاية عمرها يعود بعدها للوارثين.

قبلت هذا الوضع الذي يؤمن وجودها, وأفرغت بيت "سعيد", وذهبت بالمفتاح لعمتها "أم فوزي سعيد" تشكر لها حسن صنيعها, وصبرها, ورقتها, وجم أخلاقها,

جاملتها السيدة -رحمها الله- ببعض من الكلمات, بإنها مثل بناتها, والبيت بيتها في أي وقت شاءت فيه أن تعود.

وبدأت حياة جديدة في بيت عمتها.

كانت عمتها يشطرها أنها لا وريث لها من بطنها, كانت تعز عليها أشياءها، تؤلمها أطباقها, متاعها, مصاغها الذي كان يقترب من ألف جرام من الذهب, كان الكل طامعًا فيها, صدقًا, الكل يراها كنزًا لابد من نهبه, ومشاعًا لا يجب تركه وسلبه, وعلى النقيض, كانت هي حريصة تخشى الأيام, وتخشى الناس, يعز عليها كل شيء.

إلا أمي؛ فكانت لها من عزة النفس ما يغنيها عن الدنيا وما فيها.

كان مصاغ عمتها بين يديها, والله لم تنبهر به, ولم تنظر إليه, كانوا يخشون عليها منها؛ فهم لا يعرفون من تكون, وأي عزة نفس تملأ قلبها وجواراحها.

كانت تقول لي دومًا أجمل كلماتها, لا تزال جملتها محفورة في قلبي, أسير عليها ليومي هذا كانت تقول:

- "أمك يا ولدي لو شمت على ظهر إيدها تشبع".

لم يبق مع أمي من مصاغها الذي كان يفوق مصاغ عمتها جرامًا واحدًا, آخر شيء ابتاعته قرطها؛ لتعود بمتاعها من أسوان إلى بيت أبيها، آخر مرة تزينت بالذهب كان منذ خمسة عشر عامًا مضت.

كانت أمي تتحمل معاناة عمتها النفسية عن كثب, تقدر مشاعرها وأحزانها وفقدها وحسرتها.

- فين ده يالواحظ؟

ـ موجود هناك في النيش يا عمتي. فين, فين, فين؟

والأميرة صابرة, تعرف وجع عمتها وتقدره, تعرف خوفها وحزنها على ما تملك، لا تعرف لمن سيؤول.

وفي ليلة, طلبت منها ذهبها ومصاغها؛ فأحضرته إليها, وتنحّت جانبًا من الغرفة تقلبه, وعادت إليها وقد أحكمت صرتها على مصاغها إلا عن قرط بين يديها, وطلبت من ابنتها أن تخبيء خبيئتها, وتعود إليها, فعلت أمي وعادت, فأعطتها القرط, وقالت:

- انتي ليكي فترة يا بنتي مش لابسة حاجة في ودنك, إلبسيه يا لواحظ لغاية ما ربنا يفرجها وترجعيه.

رفضت الأميرة رفض العالمين العارفين بالآخرين، رفضت رفض القانعين الحامدين الشاكرين, أمها تصر, وابنتها أيضًا تصر, أقسمت عليها بأبيها وأخيها, وسالت أدمعها تحمل جراحها؛ فلا وريث لها, ولا ابن لها, حتى العمر لم يبق منه الكثير.

أخذته ابنتها, ويقينا تعرف أن الدنيا سوف تقوم ولن تقعد؛ فالجميع منتظرون.

ألبستها عمتها قرطها بيديها المرتعشتين, أحضرت لها كسرة مرآة لتراه فيها, هي تعلم أن بريق الذهب لا تقاومه النساء.

أخطأت جدتي, ليس كل النساء, ولا تلك النساء, هي أميرة ليست ككل النساء, أميرة شبعت والناس جياع, ولبست والناس عرايا, وتدللت والناس في شقاء.

ليست ابنة أخيك, عفوًا جدتي, أنت إلى الآن لا تعرفي من هي بين النساء.

هي أخذته إكرامًا لك, لا حاجة لها به, هي من أرادت أن تفرحك, لا أن تفرح هي, هي من أرادت أن تذكرك أن الله وهبك ابنة ينالها بعض مما تملك أمها.

لم يمر يومين, واتجهت إليها عمتها, وبلطف, قالت:

- لواحظ يا بتي ابقي اربطي الحلق بفتلة لاحسن يقع.

وقبل أن تكمل جملتها كانت اليد اليمني تخلع يمينه, واليسري تخلع يساره, والقرط في كفها, وبكل أدب ولطف وبنوة قالت الأميرة لعمتها:

ـ عمتي انا أذني التهبت من الحلق فلقد تعودت على فراقه.

ـ ليه يا لواحظ؟

ـ منا قلتلك يا عمتي وداني التهبت, بكره محمد يكبر ويجيبلي.

ظل الموقف يؤلمني طيلة عمري, ومع أول راتب لي أول شيء فعلته اشتريت له قرطًا به.

أقسم بالله، أقسم بالله, لم يمكث في أذنها يومين وابتاعته؛ لأن ابنه شقيقها وحبيبها "فاطمة منتصر" اتصلت بها, وأخبرتها أنها قادمة إليها في القاهرة؛ لتشتري لها ملبسًا, وتركبها الملاهي التي طلبتها.

من أي أنواع النساء كنت؟!

في ليلة من لياليها المظلمة, وكانت الجدة والأميرة الحزينة تمكثان في غرف البيت, يتحدثون ويتدفأون, وكانت لي حجرة أخرى مخصصة لي أذاكر فيها وأنام، وكانت تلك رغبتي؛ فأنا دومًا لي طقوس نوم مختلفه، أحب النوم في ظلام مطبق, وأقل صوت يوقظني, ولو أوقظت لا أنام مرة أخرى.

أعدتا بعض من الشاي؛ لمقاومة برد المساء, وأعدتا معهما كوبًا لي, وأبت الجدة إلا أن تحضره لي في غرفتي, رغم بعد المسافة بينهما, استسلمت أمي لرغبتها, وتركتها تمارس أمومتها المنزوعة, كان عليها إن أرادت الوصول إليّ أن تمر بدرج من درجتين, وفي ظلمة المساء, وبينما تتحس طريقها إلى غرفتي, سقطت السيدة على ظهرها, ويطير كوب الشاي في الهواء, ويكسر مفصلها الضعيف الذي يحمل هذا الجسد المنحني, والذي يقاوم الرحيل بشدة, كان وزنها لايتعدي عشرينا من الكيلو جرامات, كان كل شئ في جسدها يقتله الوهن, ويبليه الكبر, سقطت ولا تملك أن ترفع حتى

يدها؛ لتستند عليها, ولا تملك صوتًا تستنجد به من مصيبتها, ولا ألمها, لم يكن صوت سقوطها مدويًا؛ لقلة حجمها وخفة وزنها, أنا سمعت صوت سقوط الفنجان, ولم أسمع سقوطها, خرجت لأجدها مستلقية مستسلمة لقدرها, تنظر إلى السماء, تشكو الأيام لبارئها, لا تملك لنفسها ضرًا ولا نفعا, صرخت على أمي التي لم تسمع شيئًا, أتت تعدو, تحتضن عمتها, تساعدها على النهوض, وكلما مدت إليها يديها تصرخ السيدة, وكأن عظامها تهشمت, أسوأ حالًا من فنجان الشاي, أرسلتني أمي أنادي سلفتها, حضرت وأولادها أبناء شقيق زوجها, حملوها معنا إلى سريرها, أحضروا طبيبًا لها, أخبرنا: يقينًا كسرت عظام حوضها.

ولم يكن الطب متقدما, ولا العمر يسمح بجبيرتها, ولا السن يسمح بطبها ولا دوائها.

مكثت السيدة على ما يربو من شهرين, ابنتها ترفعها وتحطها, تحممها وتنظفها, تطعمها وتسقيها, كانت زوجة خالها "إبراهيم" - رحمها الله-, وكانت امرأة تشبه الرجال في طبعها والاعتماد عليها, كان اسمها "قطة" أو "أم جمال" تساعدها ولا تتركها إلا ليلا.

قضت الأميرة شهرين, فعلت معها ما لا تفعله ألف ابنة من بناتها - لو قدر لها الله ابنة من رحمها-.

الفصل التاسع

"آخر الأحبة"

مرت الأسابيع تترى, بدأ الأمر أن يكون معتادًا عليّ, أساعد أمي تارة, وأذهب للعب تارة, لم أكن مثلها أتحمل مسئولية كل شيء.

أعلنوا عن رحلة إلى مدينة أسوان, طلبت من أمي ثلاثة جنيهات قيمة اشتراكها, اعتذرت أمي, ولم يكن المال قصدها, ولكنها قصدت كيف أترك أمها, وقد أخذ منها المرض ما أخذ, قرحة الفراش مزقتها, تقطع ظهرها, وابنتها تحاول رأب صدعها, وها هو الحال يزداد سوءًا، يومًا بعد يوم.

أخبرتني أنه لا يليق تركها, وهي على مشارف الموت. تعلمني الرجولة والمسئولية.

فتحت السيدة المنهكة عينها, وأشارت لابنتها أن تحضر نقودها, أخرجت خمسة جنيهات, أعطتها لابنتها وقالت لها:

- "خليه يروح يا لواحظ, ماتحرمهوش.

ونظرت إليّ، وقالت:

- متتأخرش يا محمد, أنا مش حاموت إلا لما ترجع وأطمن عليك".

صدقت, وعلمت, وعرفت, والله ما كذبت.

عدت في الظهيرة, وماتت في المساء.

-رحمها الله-

هناك أشياء يصعب عليك نسيانها, تظل تدق في رأسك كناقوس الكنائس.

وهكذا تكمل الأيام لهيب سياطها, ومرارة سقايتها, والحزن الذي يأبى أن يفارق الأميرة الحزينة.

هكذا سقطت آخر ورقة توت كانت تستتر بها ممن تبقى من أهلها.

هكذا سددت إليها الأيام آخر قبضة لها, أجهزت عليها؛ لتخرجها من حلبة الصراع معها مهزومة كسيرة, لكن هيهات, سترفع صدرها قبل أن يتم الحكم عدد العاشرة.

ماتت عمتها وأمها وآخر ورقة توت تسترها.

انتهى كل شيء, وأصبح البيت قفرًا على ما كان ما فيه من قفر, مات ربه وربته, زادت وحشته, كنت أستشعر أن بوابته تئن, وجدره تتحرك؛ لتبحث عنهما, كنت أستشعر روحيهما تتجولان تبحث عن أشياءهما, كانت غرفة تشبه بهوًا كلما نظرت لسقفه أرى الحزن ينقش قبته, كنت أستشعر خطوهما، حركاتهما, كان يهيأ لي أنهما ينقلان متاعهما إن وضعت شيئًا من أشياءهما في مكان, يُخيّل إليّ أنهما أعاداه لموطنه.

لم يعتريني يومًا خوف, كنت أسبح في النيل قبل الفجر, وأسير في كروم النخل المهجورة في الظهيرة, كنت أعجب من غباء الأطفال, وقصص المارد والثعبان, لا يرهبني شئ أيًا كان.

لكن لأول مرة كان يقشعر جسدي إذا الباب فتحه الهواء, أو الليل جنّ, أو أتى المساء, كان يُهيأ لي أن رب البيت وربته فيه, ما زالا يتجولان, يطمئنان, يرتبان أشيائهما, ثم يغادران.

أخبرت الأميرة بما أنا فيه, لتخبرني بما هي فيه, كان نفس الشيء, يربو عليه أنه لا يليق أن نحيا في بيت بين أهله, نذكرهم أننا الوارثون, ما كان يجب أن يرثوه من عمهم الذي كتب كل شئ لزوجته قبل موته.

اتفقنا أن نغادر, ونترك كل شيء, إلى بيت أبيها, ولا يكون بيت عمتها إلا مكانًا لحفظ متاعها وغرفها, وعدنا ثانية نمكث في بيت أبيها, بل في حجرة منه فقط, ربما اعتبرتها إرثها.

نعود لعمتها, قبل أن توارى الثرى, سأل أبناء إخوتها عن ذهبها, وسألوا قبل وفاتها, من ذا الذي سيرثها, ومن لن يرثها؟

جمعت أمي أهلها وأبناء عمومتها, وخصت رجلًا من أهلها, وكان يدعى الشيخ "عبد الرازق", أرته ذهبها في حياتها وهي على فراش المرض, وكان من بينها شيئا يدعي "البندقي", كان جنيهًا ذهبيًا قديمًا مصاغًا في مدينة البندقية الإيطالية عمره الآن ثلاثمائة عام, كان البندقي وقفًا تستخدمه النساء للإنجاب, تستعيره من لم تنجب, ومن يموت أطفالها, وكان له طقوس خاصة؛ يضعوه في الماء, ثم تتحمم به النساء بعد الجماع, ولم أره يومًا نفع صاحبته, ولا غيرها.

المهم أخرجته السيدة من مصاغها أمام قريبها وأعطته لابنتها وقالت:

- "لواحظ, ده تخليه معاك لأي حد محروم تديهوله.

فأخذته على أنه وقفٌ لا يجوز التصرف فيه؛ لتبر عهدها, وكانت تعرف يقينًا أنه لا يثمن ولا يغني من جوع, لكن حافظت عليه, وأعطتني إياه, فحافظت عليه, وأعطيته لابنتي الكبرى؛ كي تحافظ عليه.

إنها المروءة والوفاء, حتى لشيء لا تؤمن بفائدته, ولكن تعرف قيمة البر بالوعد, والحفاظ على ما أؤتمنت عليه حتى لو تضورت جوعًا.

كانت الطفلة بالذكاء أن تحفظه عند الشيخ "عبد الرازق"؛ فالبيت يعج بالداخل والخارج, وهي لن تتمكن من الحفاظ على الذهب وربَّتُه, ربته الأولى بالرعاية, والجميع يعلم كل شيء, ويعرف أن بالغرفة كنزًا لا يعرف مكانه إلا ابنتها.

أعطت الشيخ "عبد الرازق" ذهبها أمام أم عينها, ولم تأخذ منه إلا "البندقي" وقفًا لكل امرأة تطلبه, أذهلها فعل بعض أشقائها, وهالها ما يفعلون, أخبرتهم أنه في الحفظ والصون, وسوف يأخذونه بعد دفن عمتهم يقينًا, وليطمئنوا أكثر أخبرتهم أنه مع الشيخ "عبد الرازق", وعمتهم هي من سلمته له.

ذهب الرجال ليواروا جثمان عمتهم, وقلوبهم معلقة ببيت الشيخ "عبد الرازق" تعلق الصالحين بالجنة؛ فها هو موتها سيصلح حالهم, ويتوب الله عليهم.

كنت حزينًا؛ فالمرأة ماتت من أجلي, ماتت من أجل كوب شاي لي, شعرت بالحزن مرتين, مرة أنني رفضت الذهاب مع خالي بأمر من أمي, ربما لو كنت معه لتغير كل شيء، ومرة بسبب كوب الشاي الذي تسبب في موتها.

يقينا كل شيء بقدر.

لم يمر أسبوعًا على موتها, اجتمعوا جميعًا في بيت أبيهم الشيخ "محمود"؛ ليبتاعوا أول إرثها, الشرع يمنع النساء من إرثها, كلهم حضروا, وحضرت الأميرة الحزينة, ليس لتأخذ شيئًا, ولكن لتلجم أي شخص ينطق بكلمة في حقها, كانوا ستة ذكور وأمي, وصدفة, كان معها ابن شقيقها المتوفى "منتصر", الذي ربى جميعهم, بل جميعنا, وصرف عليهم كل ما يملك, علّم, وربَّى, وكبّر, وفعل

معهم كل شيء يفعله الأب الحنون بابنائه, لكن الشرع أيضًا لا يورث أبنائه؛ لأنه توفي قبلها.

كان الستة ذكور, وأمي, وأنا, وابن خالي "منتصر".

كان الذهب كثيرًا, يقترب من الكيلو جرام, كان من بينه شيء يدعي "الحجل" ترتديه النساء في كواحلها فوق قدمها, كان يزن وحده أربعمائة جرام من الذهب

ابتيع الذهب بستة آلاف ومائتين من الجنيهات, وكأن الله يقسمها عدلًا, ويعطي الشيخ "عبد الرازق" لكل منهم ألفًا, ويقبض على المائتين, يهبني إحداها, ويهب أخي اليتيم "محمد منتصر" المائة الأخرى؛ وليبرر فعله تلى الآية الكريمة:

"وإذا حضر القسمة أولي القربى واليتامى فارزقوهم منه وقولوا لهم قولًا معروفًا"

كنت أنا من أولي القربى, وكان شقيقي "محمد" من اليتامى.

أحزنتني الآية, ولم أمد يدي؛ فأعطاها لأمي التي تحيرت أن تأخذها؛ فيقولوا كانت تنتظرها, أو لا تأخذها؛ فيقولوا تستقلها, فأخبرته أن يعطيها لي, فهي لن تأخذ شيئًا مثل شقيقاتها الثلاث, ليقطع أحدهم محاولة الرجل أن آخذها ويقول:

"هي فلوسنا حتتوزع من غير إذننا".

وها هي كعادتها, اختطفت الجنيهات من يديه, وألقتها في وجهه, والتقطتها من ابن أخيها لتعيد كرتها, وتطلق نارها عليه:

"محمد مش مستني فلوسك يا ابني، محمد اللي بيصرفه في سنة تاكل بيه عمرك كله".

وتشد لحضنها ابن أخيها:

انت ناسي ده واد مين؟ خد الميه جنيه بتاعتك ورجعله اللي دفعه أبوه ليك.

كان شابًا أهوجًا، لكن كلماتها أهانت الجميع, مستثنًا من ذلك أصغر أشقائها، ابن أبيها الشيخ "محمود", الذي دارت أمام عينيه في بضع لحظات ما فعله أبوه وأخوه مع الجميع؛ ليتحول الفتى إلى حصان جامح, لا يعرف ماذا يفعل, وماذا يقول, ولولا ما تربى عليه لأحرقه في بيت أبيهم, تدخلت الأميرة؛ لإنهاء الموقف, وطلبت

منهم أن يغادروا قبل أن يصل الموقف لما لا تحمد عقباه, وأرسلت خلفهم الشيخ "عبدالرازق" بالمئتين جنيه يقسمها عليهم, وجلست على الأريكة, تضعني تحت يسارها, وابن شقيقها تحت يمينها, تبكي بيتًا كان فيه يومًا أبوها وشقيقها.

رحمها الله –

ها هي تقف تواجه الأيام والأحزان وحيدة، مات أبوها, فشقيقها, فعمتها, وهناك زوجها الميت الحي.

كبر ابنها, وظن نفسه أنه أمسى رجلًا، وصل إلى نهاية المرحلة الثانوية، يحتاج نقودًا للسجائر التي يدخنها, وللقمصان التي يشتريها, وللتنزّه مع أصحابه, وللدروس, وللمدرسة, وما إلى ذلك.

هي من ربته على ذلك, هي التي لم تهنه في زرع ولا حصد, ولا في ظل ولا هجير, هي من جعلت منه أميرًا، كانت مملكته تجبي الأموال من جهدها وعرقها, وأحيانًا استدانتها؛ لكي لا يشعر الصغير بشيء, لن تسمح أن يهينه سعي ولا رب عمل, كان الولد أميرًا في مملكتها, والأمراء مدللون, يُستجاب لكل ما يطلبون, كنت أميرها, حتى أراد الله لقاءها -رحمها الله-.

لم يعنها راتبها على قضاء حوائجي؛ فلجأت لبيع أرض ورثتها من أمها –رحمها الله-, كانت تنوي أن تتركها لي؛ لتساعدني بعد تخرجي, لكن أرغمتها كثره مطالبي على التخلي عنها شيئًا فشيئًا.

كانت تبتاع القيراط بمائة جنيه, لا تكفي تدللي وبرود مطالبي أكثر من شهرين, لتبتاع غيره.

لا أحد بجوارها أبدًا غير راتبها من العمل, كان أربعة وعشرين جنيهًا, مأكل, وملبس, وتعليم, "ودلع ماسخ".

ومعها هذه المساحة الصغيرة من الأرض التي تبتاعها شيئًا فشيئًا, لا أحد يقف بجوارها, حتى من تقف ضد كل الدنيا من أجله, أنا ابنها الذي كان لزامًا أن أقف خلفها أسند ظهرها حتى ولو بكفي عن إرهاقها بما أريد وأطلب.

كان حلمي أن أكون ضابطًا في الجيش منذ طفولتي, لم يكن الجيش هدفي, كنت أحلم دومًا أن أكون على رأس سلطة الوطن, ليس حبًا في السلطة, ولا رغبة في الملك، كنت أريد ذلك؛ لأنني كنت أرى في تلك السيدة أنها لا تصلح عظمتها وعلوها إلا أن

تكـــون أم الملـــك؛ كـــي أكرمهـــا وأعزهـــا, وأرد إليهـــا جميلهـــا كمـــا كانـــت تستحق.

عانـــت فـــي كـــل شـــيء, حتـــى مـــع مـــن قـــدر الله أن تعـــاني مـــن أجلـــه - رحمها الله برحمته-

نجحـــت فـــي الســـنة النهائيـــة بمجمـــوع لـــيس كبيـــرًا, ولـــم أهـــتم أن أقـدم فـي أي شـئ غيـر الكليـة الحربيـة, فأنـا قطعًـا لـن يفرطـوا فـي شـاب مثلـي بلياقتـه الطبيـة, وخبرتـه فـي السـباحة, والقـنص, والرياضـة, كـان يملـؤني يقـين أنهـم سـيأخذونني مـن البوابـة إلـى الدراسـة بـلا اختبـار ولا كشـف, كنـت أظـن نفسـي أننـي حفيـد أحمـد عرابـي, ومـع أول اختبـار كنـــت عائـــدًا أجـــر أذيـــال الخيبـــة والانتكاســـة, وأحزننـــي أن لا تقبـــل العســـكرية متقـــدمًا أمـــه اســـتدانت ثمـــن كراســـة التقـــديم وأجـــر القطـــار، عرفـــت أن مـــن يـــأتي هنـــا يجـــب أن يكـــون لـــه أحـــدهم هنـــاك, ولأننـــي ورثـــت العنـــاد منهـــا؛ عـــدت وقـــررت أن أعيـــد الثانويـــة, وأن يجبـــرهم مجمـــوعي الكبيـــر الـــذي ســـوف أحققـــه علـــى قبـــولي بـــدون واســـطة أو مـــا شابه.

لـم تعتـرض الأميـرة الحزينـة, ولـم تـتحفظ؛ فكـل مـا يريـده فتاهـا هـو أمـر وجب تنفيذه.

لـــم تعتـــرض الأميـــرة الحزينـــة, وتركتنـــي أفعـــل مـــا أريـــد, وأعـــدتها, وحققـــت مجموعًـــا أقـــل مـــن ســـابقه, وتقـــدمت أيضًـــا للكليـــة الحربيـــة مـــرة أخـرى, ولـم أقبـل, لكـن قـدمت فـي تنسـيق الكليـات, فكـان نصـيبي معهـدًا فنيًـا صـناعيًا بالقـاهرة, قبلتـه علـى مضـض, وجلسـنا نتـدبر مـاذا سـوف نفعـل, لـم يبـقَ معهـا مـن أرض أمهـا سـوى قيـراطين, ووحيـدها الـذي لـم يفارقهـا طيلـة عمرهـا, ربمـا تبتلعـه العاصـمة, وهـو الـذي لـم يحـيَ يومًـا واحـدًا عازبًـا فـي حياتـه, لـم يُعـدّ يومًـا طعامًـا, ولـم يغسـل ملبسًـا, ولـم يغطـي نفسـه مـرة أثنـاء نومـه, ينـام, وينـادي عليهـا, ولـو كانـت حتـى نائمة:

_ غطيني يا امّا.

شاب يشبه طفلًا, يلزمه أحدهم يقضي كل حوائجه.

محمد يا ولدي أنا مش حاعرف أسيبك تقعد في مصر لوحدك.

ـــ ولا أنـــا يـــا امّـــا, هـــاين عليـــا قعـــدتك بعيـــد عنـــي, بـــس أهـــو الله وآدي حكمته.

ونعم بالله يا ولدي, هو لو انت مشيت حيفضلي ايه هنا, انا حاجي معاك يا محمد.

_ يووووووه يا امّا وبيتك وشغلك ودنيتك وعفشك؟

انت اهم من ده كله, مش حاسيبك مصر تاخدك من أمك, مصر غويطة يا ولدي, وانت لسا ماتعلمتش العوم.

متخافيش علي ولدك يامّا, جيّتك مش بالساهل.

هو اللي راحوا كانوا طيارين يامحمد؟!

ـ طب وشغلك؟

حاروح وأدور على شغل هناك، وأحول.

ـ طب وعفشك؟

أهو في بيت سيدك حلمي, ناخد التلاجة والبوتجاز والغسالة وسرير ومرتبة, واتاكد ربنا مش حيسيبنا يا ولدي.

ـ طب حنسكن فين هناك؟

حابيع القيراطين اللي فاضلين في الحرجة، وندوهم لخالك "رسلي" يشوفلنا شقة ندفعهم مقدم ونأجرها.

ـ طب احنا لينا وش نروح لخالي "رسلي"، بعد اللي عمله ابويا معاه؟!

ياولدي ولاد الأصول يقعدوا طول عمرهم ولاد أصول, ماتشغلش يا محمد، خلال أسبوع حادبر كل حاجة، اطمن.

ـ براحتك ياما.

كنت أعرف دومًا صواب رؤاها، وبعده كنت أعرف يقين عزيمتها وقوتها, كنت أعلم إرادتها، جلدها، صبرها، كنت أعلم صبرها على ما لايطاق، وعزيمتها التي لا تمل ولا تكل.

حدث شئ زاد من إصرارها على ترك كل شيء, والرحيل غير آسفة على كل شيء، تزَّوجتُ شقيقتها الصغرى، ابنة عمها الشيخ "أحمد" وحضر أخوها ليعزم أهله وأقاربه من مدينة الأقصر، وكان خبر رحيلها معي إلى القاهرة بدأ يسري, وسألها ابن عمها:

انت ليه حتسافري مع محمد يا لواحظ، أمال مين يفتح البيت؟

_ ردت عليه البيوت بيفتحوها الرجالة مش الستات يا تاج.

فما كان منه إلا أنه دعا للعرس من أراد، وقد تعمد تجاهل إخبارها بحضور عرس أختها "وفاء", والذي سيكون بعد أسبوع.

أتدرون من "وفاء"؟

هي أختها، وابنتها، وحبيبتها، وأصغرهم، سنًا وعمرًا, كانت تحب شقيقاتها البنات الثلاث أكثر من روحها, ظلت حتى تركنا القرية, أمي مذهولة حزينة على ذلك الموقف المحزن، كانت تسأل نفسها: كيف لهم أن يحرموها من حضور زفاف ابنتها؟!

أخذتني, ولكن إلى أين؟! للرجل التي تعودت أن يحل مشاكلها -ابن عمها رسلي-، أعطته ما ابتاعت به آخر أرضها؛ ليجد لنا شقة صغيرة، يقينًا, المبلغ لا يسمح حتى مقدمًا لدورة مياه.

قال لها: طب خليه معاكي وانا حاتصرف.

وفي مدينة العشرين مليون، والتي تتجول في شوارعها لأول مرة، في أقل من ثلاثة أيام وجدت عملًا يشبه عملها, بل في نفس المجال, ونفس الوزارة التي تتبعه, وذهبت سلمت أوراقي في

المعهد، وأنهت كل شيء بنفسها, وكأنها ولدت في القاهرة, (أنَّى لكِ هذا).

استضافنا تلك الفترة أناس لا أُكنُّ لهم إلا الحب والتقدير – رحمهم الله – وأكرمهم ببره وعفوه، هذه الفترة اقتربت من أربعين يومًا, لم تكن تلك الفترة إلا انتظارًا منا لابن عمتها؛ كي يتصرف في شقة صغيرة, لكن الرجل – رحمه الله – لم يتصرف في شقة نستأجرها, فعل أعظم من ذلك, كان له بيت من خمسة طوابق مؤجرة كلها، وكان يسكن في شقة أخرى, وكان في البيت غرفة فوق سطحه، وكان السطح مبلطًا ومعدًا جيدًا, أحضر الرجل أحد أقاربه, وطلب منه أن يبني غرفة أخرى لنا, وأن يجعل سقفها من الخشب, ويصب عليه الأسمنت، وكانت الغرفة أصلا تستغلّها زوجته في تربية بعض من الطيور, أخذت السيدة الفاضلة طيورها، ونظفت الحجرة, بل دهنتها، بعد بناء الغرفة الجديدة المسقوفة بالخشب، والأسمنت، لتتحول غرفة الطيور لمنتجع، لم ولن يطيب العيش لي في أجمل منه, كان السطح متسعًا ترى منه قاهرة المعز كلها, كان هواءه عليلًا جميلًا, كنت أتنقل من بين جوانبه من منظر لآخر, كان رائعًا.

ولكن ماذا فعلنا في تلك الأيام؟

استضافنا أناس لن أنسى كرمهم، ولا بشاشتهم ولا خلقهم

أولهم السيدة الفاضلة "أم سيد عصملي" حفيدة العز وبنت الأصول بنت خالة أبي، وابنتها الجميلة الشقيقة "أم ياسرعبد الحميد متولي"، كانوا لنا الأهل والعون والسند – حفظ الله – أختي الحبيبة "راوية", ورحم أمي الحبيبة "أم سيد عصملي", يقينًا كانوا لنا السند والعون حتى آخر حياة أمي.

كانت جدة أخي الكبير "أحمد عواد" السيدة الفاضلة "أم إبراهيم", وزوجها -رحمهما الله-, كانت شقتهم غرفة من حجرتين، لا تدخل الشمس إليها, ويسكنها الرجل وزوجته, وأخي وخالاته الثلاث، وابنه وزوجته، وأولاد ابنه, وأيضًا ابن بنت من بناته غير أخي.

أقسم بالله، كانت برغم ذلك باتساع الكون, كنا ننام جميعًا, وناكل جميعًا, ونحكي جميعًا, وأنا وأمي معهم, وكأننا نحيا في الفضاء, بودهم, وكرمهم, وبشاشتهم, وحبهم.

أقسم بالله, كانت مساحة الشقة كلها أقل من عشرين متر, كانت مساحتها التي عرفتها ما بين المشرق والمغرب.

الفصل العــاشر

"يـــا قـــاهرة"

بعدما رتبت الأميرة كل شيء بحنكة واقتدار، عدنا لقريتنا, اتفقت مع سائق من قريتنا يعمل ما بين القاهرة وقريتنا، أن ينقل ما تحتاجه من متاعها, الثلاجة, والغسالة, والبوتاجاز, ومرتبتين, ومكتبي, ودراجتي، هذا فقط, وتركت كل ما تملك هناك في بيت عمتها الذي لا يجرؤ أحد على الإقتراب منه؛ لأنه مكتوب باسمها في حياتها.

سبقتني في القطار صباحًا وحدها، وتركتني أضع أشياءنا مع عم "جابر النحاس" مساءًا, وأحضرمعه للقاهرة.

ويستحضرني موقف ما زلت أذكره رغم مرور السنين, يضحكني, سأذكره في تلك الرحلة, وضعنا الأشياء، وركبت مع الرجل، وكان أبوه يركب معنا في مقدمة السيارة ذاهبًا معه إلى القاهرة, ليأتي أحدهم ويطلب من عم "جابر النحاس" أن يأخذ رجلا كان طيبًا وبسيطًا معنا؛ لأنه يريد الذهاب إلى القاهرة للعمل, وكان الرجل أيضًا من عائلة كبيرة ومهابة, ومن كان يحدثه هو كبيرهم,

فقال له عم"جابرالنحاس":

- والله يا حاج معايا في الكابينة أبويا ومحمد، مافيش مكان.

ـ ماهو ورا في الصندوق فاضي، يركب واهي ليلة وتعدي.

كان وقت الرحلة اثنتا عشرة ساعة, كيف يطيق أن يقضيها في الصندوق؟!

ولم ينتظر تعقيبه وأمره أن يركب في الصندوق, ولم يكن هناك طريقًا غير أسوان القاهرة الزراعي, ركب الرجل وانطلقنا السابعة مساءًا, وصلنا مدينة أسيوط الواحدة ليلا, نزلنا في أحد المقاهي وشربنا بعضًا من الشاي والقهوة, وعاد الرجل لصندوق السيارة, وأكملنا الرحلة, أكملنا مسيرنا, ووصلنا بني سويف الخامسة صباحًا, وقفنا للاستراحة, طلب مني "عم جابر" أن أناديه من الصندوق, ناديت عليه كثيرا فلم يرد, صعدت لصندوق السيارة, فلم أجده, أخبرت عم جابر الذي ظل يصرخ على تلك المصيبة, تركنا القهوة والشاي, وعدنا في طريقنا لأسيوط, عودة أخرى ربما نجده, والرجل لا يعرف لو فقدناه ماذا يقول لأهله, بعد مائة وخمسين كيلو متر في طريق العودة, تقريبًا سمعنا طرقًا على سقف الكابينة, والرجل يقول:

ـ ايه يا جابر مش حانقف نشرب كباية شاي؟!

انتحي الرجل جانبًا في ذهول وفرحة معًا, ونزل يصرخ متعجبًا:

- كنت فين ياعم, انت حتجنني؟!

قال له:

ـــ في ايه يا جابر, الجو برد بالليل, فتحت التلاجة, وطلعت الرفوف, وقعدت جواها, وقفلت علي نفسي.

كان الرجل لا يتجاوز حجمه حجم صبي في العاشرة -رحمه الله-.

بدأ يستقر لنا المقام, وعدنا في بيت الخال "رسلي", نقضي مساءنا في السطح, ثم نخلد للنوم في الغرفة, ونستيقظ , تذهب هي لعملها, وأذهب لدراستي.

وهل تتركها الأحزان لحالها؟!

كيف, وهي التي خلقت لأجلها؟!

لم يمر شهر على إقامتنا السعيدة في تلك الغرفة التي كانت تراها باتساع الكون, كنت متحفظًا شيئًا ما على ما نحن فيه, لكن كان عندي يقين أن كل شيء سيتغير قريبًا, ولزامًا عليّ أن أنسى, لا مبالاة كنت أعيشها؛ فها أنا أبلغ مبلغ الرجال, ويجب أن أكون فاعلًا, أقدم لتلك المراة العظيمة شيئًا ما يعينها على ما تكابده من مسئولية وجهد, كان راتبها خمسين جنيهًا, وتأتي إليها الفتيات تعلمهن بأجر أو بغير أجر, ولم يمضِ كثيرًا حتى وجدتها تعرف نساءًا ممن تيسر حالهن, تعلمهن في بيوتهن.

كانت تكافح من أجل العيش كألف رجل.

أصبح لها أصدقاء من عِلية القوم وخاصتهم, ومحبين من البسطاء والعامة, التف حولها كثير من الناس, كانت امرأة تجيد شيئًا رائعًا, هو كيف يحبها الناس, بل يعشقونها.

نعود لبداية فصل الشتاء, وقبل أن يأتي, ولم يمر علينا شهر واحد أو شهران, حدثت أول كارثة في مقدمنا الجديد, كان الشتاء في قريتنا بعضًا من صيف, ربما غامت الدنيا فيه مرة أو مرتين,

أما المطر فكان حلمًا لطفولتنا, كنا نفرح بقدومه, ربما كل خمس سنوات مرة, نهلل تحت غيثه, ونتراقص, ونغني:

"يا مطرة رخي, رخي خلي الجمح بعشرة".

كنت أرى الشبورة لأول مرة في القاهرة, أقصى شبورة رأيتها في بلادي, كانت تأتي أحيانًا فوق جوانب الأرض المنزرعة, وليس في وسطها, بارتفاع لا يتجاوز عشرة سنتميترات, وقبل أن تصل إليها لا تجدها, وفي مساء لن أنساه, قامت الدنيا ولم تقعد, ظننت أن يوم الحشر آتٍ, تلبدت السماء بغيم أسود, شعرت أن الله أراد به أن يفصل الأرض عن السماء, ما لبثت إلا أن تضيء الكون من مشرقه لمغربه بخطوط بارقة تشق السماء نصفين, أولها في الشمال, وآخرها في الجنوب؛ فتضيء ما بين الخافقين, وتحيل قاهرة المعز لكتلة ملتهبة من الضوء, يتبعه هدير يخبرك أن السماء الأولى تحطمت على من فيها, وسوف تسقط على الأرض بمن فيها, ما هذا؟ وما ذاك؟

أنا رأيت البرق في عمري مرتين, والرعد أظن أنني سمعته أيضًا مرتين, ما هذا؟ لعن الله مدينتكم, وغيومكم, ورعدكم, وبرقكم.

مرت لحظات ليست ببعيدة, ويهمي غيث, وكأن الحجب فُتحت, وعن غموضها تخلت, وأن هناك بحرًا أو محيطًا فيها سقط قناعه, ويصب ما فيه فوق رؤوس أهل الأرض غيثًا لم أرَه ولن أرى مثله مرة أخرى -إلا مرة فوق مكة-, شعرت أن هذا الغيث ترك الدنيا, ويصبه الله فوق رأسنا عن دون خلقه, الأمر لا يطاق, تنزل قطرات المطر فوق سقف الحجرة كأنها أحجار من سجيل, أو كأنها أحجار من النار, ينتابني شعور أن المطر سيذيب الغرفة, بل البيت, بل الحي, بل الكنانة من أقصاها إلى أقصاها.

المطر يهمي, ولا يتوقف, وبدأ يزيل سقف الحجرة, وبدأ الماء يتسرب إليها, لا, لست أنا من يهان لهذا الحد؛ فأنا ربيب البيوت, والقصور, والعزة, والكرامة, أنا من لا يجب أن يذله المطر, أو تفضحه ريح أو كدر, مرت لحظات كانت تشبه أهوال القيامة, ذاب السقف في أقل من عشر دقائق, وكان الخشب يسقط فوقنا الماء كسيل منهمر, امتلأت الغرفة, وقطع عم "حامد يوسف" – رحمه الله – تيار الكهرباء الذي يوصله إلينا من شقته خوفًا علينا,

وامتلأ السطح بماء؛ ليصبح أقرب إلى بحيرة , وهبط الدرج وكأنه مخرًا للسيول يأخذ معه كل شيء, كتبي, وأوراقي, وقصاصات أشعاري, يأخذ معه كل ما اعترض طريقه, والسماء مصرة على سيلها وتوحشها, لا رحمة تبديها, ولا رأفة تهبها لهولاء الثكلى المقبلين على حياة جديدة, يحدوهم الأمل في غد أفضل, ولكن... هل تكتفي بما تفعل؟ كلا

وكانت دعوة أمي لربها أن يوقف جور السماء لطفًا بابنها الذي بدت عليه علامات الحزن والجرح, كانت عينه تقول لها:

نحن لا نستحق ذلك, نحن نستحق أفضل من ذلك, لم يكن يحزنها إلا حزني, ونظرة عيني وألمي, لم يحزنها ما السماء تهميه و تفعله, ولا البرق يخطفه, ولا الرعد ما يهدره, كانت تعلم أن الله لا يقصدنا بذاتنا, هي تعرف أن الغيث خير, يحيي به الله أرضًا تشققت, وينبت زرعًا, ويجعل منها سنابل خضرًا, وزهرًا, وثمارًا أينعت.

كانت تفكر بالمجمل بحاجات الجميع, وكنت لا أفكر إلا في نفسي, وبينما تهدئ من روعي وتصبرني, استجاب الله لدعائها, ولكن كل شيء بسبب, قامت ريح لم أرَ مثلها, تشبثًنا ببعضنا قبل أن نطير, والمطر أصبح كمن جمع عربات الإطفاء جميعها يوجهها في وجهه, ومن تحتنا ومن فوق رؤوسنا حملت الريح سقفنا الخشبي, وكأنه ورقة في وجهنا, إلى أي مكان ذهبت به؟ لا أدري, لم يبقَ إلا القليل وتحمل الحجرة نفسها تقذفها في الهواء, أصبحنا كمن يسير في البادية, لا شيء يسترنا, كنت أرى السماء تضحك علينا, وتسخر منا, ها نحن تحت رحمتها, بل جبروت قسوتها, وأخشى على أمي ونفسي أن تحمل الريح أحدنا؛ فتلقيه في مكان لا يرى بعدها أحدنا الآخر, سيُجنّ جنوني, احتضنها, وأتشبث بالجدار, أخشى عليها, وتخشى علي, تدعو الله وكأنه أمامها:

"رحمتك يا رب, رحمتك يارب, رحمتك يارب".

كان دمعنا يهمي هماء السيل, هي تصبرني, وتعدني بأن ذلك لن يدوم طويلًا, وتقول: "صبرًا بني صبرًا, يا ولدي, من المحال دوام حال", وأنا شاخص, لا أصدق كيف أتينا, وكيف جئنا, وكيف تفعل بنا الأيام ما تفعل.

كانت تدعوا الله أن يزم غيثه, ويطفيء برقه, ويلجم رعده, كانت تتضرع إليه بكل ما يحب,

ـ "رحمتك يا رب مالناش غيرك".

كان الدعاء صادقًا يشق عنان السماء, لا يبالي ببرق ورعد, ولا يخشي من الله رفض.

ساعة من الزمان تشبه يوم الدين, كانت أشد عليّ من يوم فرعون وهامان وجنودهما, انطبق علينا البحران, وأطبق علينا الأخشبين الحزن والألم.

دعت الله بقلب راض قانع بكل ما يريده الله, سمع الله لابتهالها, وتضرعها؛ أشعل برق ما بين السماء والأرض, تلاه رعد اهتزت له الأرض, وهمت مطرًا ظل لدقيقتين لا شبيه له, وفجأة صمت كل شيء, كل شيء, كل شيء.

وكأن الله رفع يده؛ ليقف كل ذلك, استشعرت أن الله أشفق على خوفنا, أحزنه تشبثنا ببعضنا, هاله هول ما فيه أَمَته وعبده؛ فأمر السماء أن تعود كما عادت صافية وديعة, كطفل ينام في حضن أمه.

يا قادرًا بقدرة كن فيكون, تباركت ربي, وكذلك مشيتك, قدرتك, عزك لخلقك, وكذلك تبارك أمرك ونهيك, تبارك فيك كل شيء.

كان بالبيت عشر شقق.

بدأ كل شيء يعود لما كان, فجأة خرج أهل البيت من شققهم, يتلصصون هذا الخرير الهادر فوق درجهم, وكأن الدرج تحول إلى قناة ماء, أو شلال في مصب, يفتحون أبوابهم بحرص, أعلم, ربما كانوا يفكرون فينا, يمصمصون, يتسائلون: ما حال القاطنين فوق السطح؟ لا يملك أحد في تلك القيامة شيئًا لهم, الذهاب إلى السطح ضرب من انتحار, بدأوا في الصعود إلينا, يقاومون دفع الماء على الدرج, حفاة, يرفعون جلابيبهم أسفل عوراتهم؛ فالموقف كيوم الحشر, لو كانوا عرايا لما نظر أحدهم إلى الآخر, وأنا أقف صامتًا مذهولًا, لا أصدق ما جرى, غرفتنا تغيرت معالمها, طار سقفها,

ذاب طلاؤهـا, مراتبنـا ومخادعنـا كانـت تتجـول فـي السـطح فـوق المـاء كمـن مـلّ سـكونه والنـوم عليـه, كانـت تتجـول فـي السـطح كأنهـا أوزًا يمـارس السـباحة فـي اللجـة مـع صـغارها, المخـادع, كتبـي, وأشـعاري, وأوراقـي تطفـو هنـا وهنـاك, الأوانـي الفارغـة امـتلأت, والحقيبـة الوحيـدة ملكنـا فيهـا ملابسـنا, كانـت مـن الكرتـون, ذابـت وتحللـت, كـل شـيء أصـبح لا يمكـن وصـفه, كـان الأمـر محزنًـا ومبغضًا ومهينًا, يحتاج إلى صبر أيوب, أو صبر الأميرة الحزينة.

جاراتنـا بـدأن فـي الصـعود, امـرأة خلـف أخـرى, أول مـن سـبقتهم الأم الحبيبـة "أم كـوثر" زوجـة عـم "حامـد يوسـف" – رحمـه الله –, الكـل حـزين, والكـل يتمـتم, والكـل مشـفق علـى هـاذين الفجيعـين القـادمين, وأول عهدهما بقاهرة المعز, لقد أحسنت المدينة استقبالهم.

زاد مـن حزنـي تلـك النظـرة المشـفقة مـن جيراننـا, أردت أن أصـرخ فـيهم أخبـرهم أننـا لنـا مـن البيـوت مـا لـيس لكـم, ومـن المتـاع مـا لـيس لكـم, ومـن العـز مـا لـيس لكـم, نحـن كنـا سـادة, تركنـا قصـورًا, لكـن من سيصدق قولي على ما نحن فيه.

كـان صـوت أقـدامهم وهـو يتحـرك فـي المـاء يـؤلمني, يهينينـي, جمـيعهم صـعدوا متفقـين علـى فعـل شـيء واحـد؛ أن يلملمـوا شـتاتنا وخوفنـا, وأن ننـزل؛ لنبيـت ليلتنـا معهـم, أمـي تحـاول أن تبعـدني عـن شبح الموقف,

-انزل يا محمد أقعد مع حبيبك عمك "حامد"

ـ لاااااا, أنا قاعد هنا للصبح, وأول ما النهار يطلع نرجع بلادنا.

-إهدى يا ولدي, كل الأمور بتتصلح.

"كل النساء يكذبن"

- دي أول مرة يا محمد يا ابني تمطر في القاهرة من سنين.

ـ كدابين, دي السما عايزة تذلنا

ربما تعيد السماء كرتها, أبدًا إنا لها, لن أهرب منها, فلتفعل السماء ما تريد, أنا باق أنتظرها, لا أخشاها, لن تفعل فينا أكثر مما فعلت.

نزلت النساء, وأحضرن أزواجهن, وأنا رافض, يتعجب فيهم من يتعجب, وينكر من ينكر.

أمي وبعضهن, كن يشغلهن جمع حاجتنا العائمة على سطح البيت, وبغرفتنا يحملنها, ويضعنها فوق سور السطح, ربما ينفع منها ما ينفع وإن لم ينفع فلن يضر.

جمعوا كل الأشياء, إلا قصاصات أشعاري المتناثرة, في كل مكان تطفو؛ فهي بالنسبة لهم ليست إلا كلمات لا تثمن ولا تغني من جوع.

قضيت ليلتي في العراء, بين الأرض والسماء, لم تتركني حبيبيتي , كانت تزيح الماء بكاحلها إلى الدرج؛ فنحن لا نملك مساحة ماء إلى الآن, هناك الأولى منها.

قضينا ليلة منقوشة في الذاكرة, حتى ألقى ربي لن أنساها.

كانت رغم كل شيء تضحك معي, وتهدئ من روعي, قالت:

- يامحمد, خالك "رسلي" هو السبب في اللي حصل.

فالتفت إليها ردت:

ـ "هو كان ينفع يعمل حمام من غير دش, وهو عارف إنك بتحب الإستحمام الكتير؟!

أهو ربنا قال له مادام ماركبتلهمش دش, أنا حاعملهم دش, بس المايه كان ضغطها عالي شوية.

أخفيت ابتسامتي, هي تحاول, وأنا مصرّ على أن أعلن سخطي, رغم أنه من الأولى أن أكون أنا من يهدئ من روعها, ويحتصنها, ويخفف وطء ما هي فيه.

أحيانًا تتحول النساء إلى رجال, ويتحول كثير من الرجال إلى نساء.

أتى الصباح, أنتظره على أحر من الجمر, اجتمعت النسوة, نزحن كل الماء, وجففن كل شيء, أين كنا من الأمس القريب؟

أخرجوا كل شيء, وأعادوا قبل الظهيرة كل شيء, حتى أبنائهم جمعوا من المنازل التي طارت فوقها ألواح "الأبلاكاج", أحضروها, وقبل المساء اشتروا الخيش المقطرن فوق الأخشاب, لصقوه, وفي أقل من يومين سمع خالي الحبيب صاحب البيت بما حدث؛ فأعاد صب السقف بأفضل مما كان من قبل مرة أخرى, حتى قصاصات أشعاري التي جففتها وأعدت كتابتها, وفجأة عاد كل شيء إلى ما كان إلا شئ واحد.

أحضرنا معنا تلفازنا من قريتنا, وكان قد أحضره لنا أبي – حفظه الله – من الخليج منذ زمن مضى, وكان صغيرًا بالقدر الذي لا يمكنك رؤية رجلٍ فيه, إلا أنه يُظهر وجهه فقط, كان التلفاز عندنا قبل أن يفقد صوابه لا يأتي إلا بالقناتين الأولى والثانية, وكنا نسمع أن هناك الثالثة تخص العاصمة وحدها, لم نرها أو نسمع عنها, كان يرافقه مرة تشوش, ومرات يفقد إرساله, ووصل قبل أن نأتي لمرحلة العطب, ولم يعد يمن علينا بصوت ولا صورة, حملناه

معنا, وعرضت أمي عليّ أن نصلحه عند أحدهم في القاهرة, حملته وذهبنا, الرجل كشف عليه وقال:

ـ حيتصلح وحسابه خمسين جنيه.

حملناه, وعدنا نضحك, ونسخر منه في عودتنا

ـ قال إيه, خمسين جنيه, يا راجل ده إذا كان المرتب اللي عايشين بيه 48 جنيه, تصلحه وناكل بلح ناشف طول الشهر؟!

ـ أنا: بقولك إيه يامّا؟ احنا نعمله حصاله, ولا باقول لك نشيل فيه المجوهرات.

وظللنا نضحك, حتى صعدنا به وألقيناه جانبا, جاء السيل بما حمل, وامتلأ مع غيره بالماء, أخرجته في الصباح, وقلبته على ظهره؛ فأفرغ ما فيه كدلو مملوء تفرغ منه ما حوى حتى قمته, فككت ظهره, وأدرته نحو الشمس؛ ليجف داخله, وأخبرت أمي أنني سوف ألقيه في الخرابة التي بجوارنا, قالت:

ـ لما يعدي بتاع الخردة بيعه له, على الأقل يجيب اتنين جنيه احنا أولى بيهم.

وضحكت معي مداعبة قالت:

أبقى أقوله له إنه شغال, ووصله في الكهربا حيقعد يوش,

قل له: لما توصله الإيريال حيشتغل.

وظللنا نسخر من واقعنا ونضحك حتى القهقة.

كنت مذ طفولتي أحب الكهرباء, وإصلاح كل ما يقع في يدي, لكن لا أحب الالكترونيات, ولا التعامل معها.

بينما الأميرة الحزينة مشغولة بشيء تفعله, قررت أن أضعه في التيار الكهربائي؛

لأراه إن كان يصدر صوتًا كما كان, أم أنه فقد كل شيء حتى صوته المزعج, ولكي لا أظهر محتالًا أمام بائع الخردة, أوصلته بالتيار الكهربائي, التفتت أمي لشيء لا يصدق, التلفزيون يصدر كلامًا, وليس ضجيجه المعتاد, صورة نقية رائعة, مكتوب في أعلاها: "القناة الثالثة".

"يا نهار أبيض على كرمك يا رب, يا نهارأبيض على الجمال, يا نهار أبيض على الستر, يا نهار أبيض على الحكمة, ومن غير إربال كمان! إيه ده؟! إيه ده يارب, من غير خمسين, ولا ستين! إيه اللي بتعمله ده معانا يارب.

احتضنتني, واحتضنتها, ودُرت بجسمها الخفيف في الحجرة, أمسكت مرفقيّ, ونظرت في عيني وقالت:

-اتعلمت يا محمد! اتعلمت يا ولدي! ماتخافش من أي حاجة بيعملها ربنا, هو بيدبر كل حاجة صح, اتعلم يا محمد.

فهل تكتفي بذلك العلم لابنها؟!

لا, يجب أن يتعلم كل شيء؛ فماذا ستفعل معي الأميرة الحزينة بعد ذلك؟!

الفصل الحادي عشر

"عطـــــاء"

استقرت الأمور بنا شيئًا ما, تكافح هنا, وتكافح هناك، أحاول أن أساعدها؛ فلقد كفاني ماتدللت، لم تطلب مني يومًا أن أذهب للعمل؛ فهي تستشعر دومًا أنني رسالتها، ولم تخلق في الدنيا إلا لأجلي، كنت طالبًا ومدخنًا، ومسرفًا، لم تعترض يومًا على شيء أردته أو أفعله.

ذات يوم كنت عائدًا من المعهد, ووصلت البيت قبلها، وكانت قد نفذت نقودي، وسجائري، وجلست أنتظر عودتها من عملها، فتحت الباب ودخلت، وجدتها مرهقة عيناها باهتة، متألمة, وجناتها ذابلة متوترة, وفي يدها خمسة أرغفة خبز، وشريط برشام يتضح من اسمه أنه لعلاج نزلة البرد,

- مالك يامّا سلامتك؟!

ـ مافيش ياولدي شوية برد ويروحوا.

- سلامتك يامّا، ماعكيش جنيه أجيب علبة سجاير؟

ـ ماعكش سجاير ياولدي؟

- ماعييش يامّا.

ـ طيب خلاص خليك، انت جاي تعبان، حاروح أنا اجيبلك.

- لا خليك انت.

ـ لا، خش انت اعمل لي كوباية شاي، وأنا هاروح أجيبلك السجاير يا ولدي.

- طيب يا أمي لما ترجعي اشربي الشاي وخدي البرشامة وريحي شوية.

ـ ماشي ياولدي.

خرجت, وعادت بنصف علبة, واعطتني إياها, كنت قد أعددت الشاي، قدمته لها، وسألتها عن حبوبها,

- خدت ياولدي، خدت. اااااه، آه

أعادت الحبوب للصيدلية, واشترت بسعرها نصف رزمة من الدخان؛ لأنها لم تكن تملك ثمن ما أريد. اااااه، آه آه عليك يا أمي, ما زال يؤلمني حبك, يؤلمني عطاؤك, يؤلمني منك كل شيء.

مرت الأيام، ولكن لن تتركها الأميرة الحزينة هذه المرة, لقد وهبها المجيء لقاهرة المعز شيئًا طالما انتظرته لابنها، شيئا لم يكن يهتم الابن به، فما هو هو ذاك الشيء، الذي سوف تسخره من أجل ابنها والذي يفتقده كثيرًا؟ إحساس العائلة، نعم إحساس العائلة,أن يكون لك أهل؛ أب, وأم, وأشقاء, وعائلة, كانت حتى ذلك الحين زوجة لأبي مع إيقاف التنفيذ, لكن هناك شئ جديد هنا, إخوتي وأمهاتهم، وكان أولهم أخي الأكبر "أحمد"، من زوجة أبي الثانية، أمي الحبيبة "مريم" أم "أحمد"، فرح "أحمد" بقدومي إلى القاهرة نفس فرحتي به، وها أنا لأول مرة لي شقيق معي، أول ما قدمنا استقبلني "أحمد" لمدة شهر كامل في بيت جده الذي تربى فيه، أكرم الناس فيه وفادتنا, وطلبت أمي بذكائها من "أحمد" أن تزور أمه الأرملة التي تزوجت بعد أبي، وأنجبت خمسة من البنات، وأصغرهم ولد اسمه "محمد" أيضًا، ذهبنا إليهم، كانت السيدة ما زالت تحتفظ بشيء من جمال الصبا، أكرمتنا, وبقدرة أمي الفائقة على الولوج في قلوب الآخرين بسرعة لا مثيل لها, وفي جلسة واحدة, عشقت "مريم" ضرتها السابقة, واستشعرت بناته بنفس الحب، والأجمل أنني أخذت قرارًا في لحظتها, أن من بعد ذلك اليوم تلك الفتيات الصغيرات اليتيمات شقيقاتي منذ اليوم، بعد أسبوع واحد, أصبح لي شقيقان وخمس شقيقات، بين عشية وضحاها، ما أجمل أن تملك شقيقًا.

لم أشعر يومًا ما أن أخي "أحمد" شقيقي من أبي فقط، ولم أشعر يومًا ما أن أمه زوجة أبي السابقة، ولا شقيقاته بنات زوجة أبي، شعرت تجاههم بألفة الأشقاء من أب وأم, كنت وما زلت أحبهم جميعًا، وأحب أمي "أم أحمد" –رحمها الله-,

لكن, هل تكتفي الأميرة الحزينة بذلك؟

زوجة أبي التي تزوجها في الجنوب، حضرت إلى القاهرة حيث أهلها, ونالت أيضًا نصيبها من أبي، انفصل عنها وترك لها ولدًا وبنتًا، "أيمن" و"أميرة"، وذهب ليتزوج السادسة في مدينة طنطا, وترك لها ابنه وابنته؛ لتربيهما كمن سبقنها, كانت السيدة مريضة. تحفر في الصخر من أجل طفليها, تزوجها أبي بعد أمي، التف أهلها حول أبي، أسعده جوهم وحياتهم، وعندما تغيرت ظروف الخليج ربما انفضوا من حوله، وكانت الطريقة الوحيدة لتأديبهم أن يترك ابنتهم وولده وبنته؛ ليربوهم كما فعل معي, ومع أخي "أحمد".

تـــزوج الجديـــدة, وغـــادر مقتنعًـــا أن هنـــاك للبيـــت رب يحميـــه، وربمـــا أرباب تهتم بابنته وابنه فيه, وتربيهما.

كانـــت الســـيدة تعـــرف أمـــي، ولكـــن لـــم ترَهـــا, ظروفهـــا ســـيئة للغايـــة، لـــم يهـــب الـــزمن لأخـــوتي "أيمـــن" و"أميـــرة" أخـــوالا يشـــبهون أخوالنـــا, كـــانوا أناسًـــا طيبـــين، لكـــن لـــم يكونـــوا يقينًـــا جـــدة "أحمـــد", ولا جـــد "محمـــد"، لكـــن الســـيدة كانـــت بـــألف رجـــل, رغـــم مرضـــها, وضـــيق ذات يـــدها، كانـــت تنحـــت فـــي الصـــخر مـــن أجلهمـــا, كانـــت مـــن الممكـــن أن تحـــرق نفســـها مـــن أجلهمـــا، كانـــت فـــي حبهـــا لهمـــا مثـــل أمـــي, مـــع اخـــتلاف البيئـــة, والفكر. والرؤى.

كانـــت أمـــي ترســـل لهـــا, وهـــي متزوجـــة بعـــدها زوجهـــا بعضـــا مـــن الأشـــياء, وهـــي تعـــيش فـــي أســـوان؛ فهـــي تعـــرف زوجهـــا, وتعلـــم أن للسيدة ولد, يوما ما سيكون في ظهر ابنها.

طلَبَتْ من "أحمد" أخي أن يذهب بها إلى السيدة,

- يـــا أحمـــد، انتـــوا لازم تبقـــوا مـــع بعـــض، تخلـــوا بـــالكوا مـــن بعـــض، انتـــوا اخـــوات، ملكـــوش غيـــر بعـــض، ودّينـــي لام أيمـــن، محمـــد يشـــوف اخواتـــه، وتروحـــوا تســـألوا عـــنهم وتكونـــوا بـــدل أبـــوكم ليهم.

كـــان "أحمـــد" شـــقيقي مـــذهولًا مـــن فكرهـــا، مـــن خلقهـــا، مـــن طبيعتهـــا, أحبها مثل أمه, أيضًا جميع إخوتي كانوا ينادوها: (يا أمي).

ذهبنـــا إليهـــا، فرحـــت الســـيدة فرحًـــا شـــديدًا، وكأنهـــا ملكـــت الـــدنيا ومـــا فيهـــا، شـــعرت بوجـــود أشـــقاء طفليهـــا الصـــغيرين حولهمـــا بأنهـــا آمنـــة عليهمـــا مـــن غـــدر الليـــالي والأيـــام, وإن أصـــابها مكـــروه؛ فهـــم فـــي عهـــدة أشـــقائهما, لـــن يتركوهمـــا تتقاذفهمـــا الأمـــواج, طلبـــت منـــا أن نـــداوم علـــى زيارتهـــا, وكانـــت قـــد تزوجـــت رجـــلًا آخـــر, لا أنكـــر أنـــه كـــان حنونًـــا علـــى أخويّ -رحمه الله-.

وكانـــت الســـيدة -رحمهـــا الله- تحبنـــي كـــأخي أيمـــن تمامًـــا, حتـــى التقـــت بارئها -رحمها الله-

وهكـــذا فـــي غضـــون شـــهر أو أكثـــر, وجـــدت لـــي أشـــقاء, وأهـــلًا, وعائلـــة, ونفـــس الشـــيء وجـــده إخـــوتي أيضًـــا, وأيضًـــا كـــل مـــن وجـــد لـــه أمًـــا غيـــر أمـــه, -مـــا أروعـــك يـــا أبـــي-, ومـــا زال الرجـــل يجاهـــد فـــي مدينـــة

طنطا، من أجل أشقاء جدد, وأمًا جديدة, هو يبعثر, والأميرة تلم الشتات.

كان راتبها خمسون جنيها أو يقل، تدرس لربات البيوت هنا وهناك, تعلمهن أحيانًا في البيت عندنا, زوجات, وفتيات.

أبناء زوجها، "أميرة" و"أيمن" لابد من الوقوف معهما، أنت شقيقهما لا تتركهما للأنواء، أبوك لن ينفق عليهما، كانت تستقطع من راتبها كل شهر ما تملك استقطاعه لإخوتي الصغار، كانت أمهم تحبها بل تعشقها، كانت تستشعر أنها أكثر حنانًا عليهم من أبيهم, كانت السيدة رغم أمراضها ومتاعبها تجاهد من أجل طفليها، تبتاع الأشياء في السوق مرة, وفي البيت مرات، كي تقيم بنان طفليها، كانت تكرمنا أشد الكرم إذا وفدنا إليها, تجلس في الغرفة تحتضن الموقد، تعد لنا ما قدر الله لنا من طعام، -رحمها الله-.

مرت الأيام, والأميرة الحزينة تكافح، أحاول أن أساعدها، بدأت أحاول عمل أي شيء لمساعدتها.

فرغت إحدى الشقق في الدور الأرضي, وهبنا الخال "رسلي" إياها بعد عام واحد فوق غرفة السطح, كانت يقينا أفضل حالًا منها, لكن فقدنا معها الهواء والشمس وجمال القاهرة ليلا، أنهيت دراستي ونحن فيها.

بعد أن أنهيت دراستي كان لزاما عليّ أن ألتحق بالتجنيد, وأن أقضي فترة ليست بقصيرة فيه؛ فأنا حقًا وحيدها، لكن إلى اليوم، هي على ذمة أبي، كانت منفصلة عنه مع إيقاف التنفيذ؛ فالرجل تركها كالمُعلّقة، كل تلك السنون لم تعبأ بذلك أبدًا, فأقل ما تجنيه من ذلك أن يتعامل معها الناس على أنها مطلقة, وأن ابنها لا يشعر بالخذلان أن أباه طلق أمه، كان كل شيء تفعله لأجلي, لا يهم أي شيء في الدنيا إلا ابنها، تفعل أي شيء, وكل شيء.

هي تعرف أنه ما دامت متزوجة من أبي سألتحق بالتجنيد؛ لأنني لست وحيده وهي متزوجة منه, وكلاهما لم يبلغا الستين، وأنا يقينا لن أعفى من الخدمة, فعلت ما لا تفعله امراة غيرها، قبلت أن تصنف مطلقة مقابل أن لا يدخل ابنها ليؤدي الخدمة العسكرية, استدعت شقيقي الأكبر, وطلبت منه أن يحضر أباه؛ كي يطلقها من أجل أخيه, تعجب أخي لما تقوله, وحاول إثناءها, لكن هيهات؛ فالأمر يتعلق بابنها, وعام ونصف من عمره سوف يضيع قبل أن يبدأ حياته ويشق طريقه.

رفض الرجل في بداية الأمر؛ فما كان منها إلا أن أخبرته أنها سوف تلجأ للمحكمة, وتحصل عليه, رغم كل شيء, استجاب أبي لطلبها, وظل يومها يبكي, ليس على الانفصال فقط, ولكن على كل ما جنت يداه في حقها.

وكما أرادت, حصلت على الإعفاء من الخدمة العسكرية, والتحقت بعمل, توسطت إحدى صديقاتها لي فيه.

ها هي الحياة بدأت تضئ، تخرج ابنه, وأعفيَ من الخدمة, وبدأ يعمل.

كان أول شيء فكرت فيه أن تنهي هذا العبء الذي تحمّله ابن عمها, بأن نمكث أكثر من عامين في بيته, بنى غرفتي السطح من أجلنا, وأعطانا أول شقة فرغت بعدها, ولم يطلب يومًا جنيهًا واحدًا منا, كان يجب عليها أن تغادر, وأن تبحث لها عن مسكن تؤجره؛ كي يستفيد الرجل من بيته, وكفاه فضلًا ما فعل.

استأجرنا شقة في الدور الأول في منطقة ليست بقريبة من سابقتها, لكنها في نفس الحي, كانت متواضعة, لقد توفي من كان يقطنها قبلنا, وتركها أولاده, أخبرنا مالكها أن كل من سكنها أكرمه الله, وخرج منها للأفضل، ضحكت في سري وكنت أعرف قصة من سكنها, وقلت له في نفسي: حقًا غادرها الرجل للأفضل, يقينا كان القبر أفضل منها.

كانت تعمل, وكنت أعمل, وهي تخطط لي بيتا, وزوجة, وأسرة, حلمت لي ببيت رائع, وزوجة طيبة, وأبناء يملأون عليها الدنيا.

كانت ترى ألّا أتزوج إلا من قريباتي, حاولت, وسعت, كانتا اثنتين حلمت كثيرًا أن أتزوج إحداهن، كانت كل واحدة منهن من بنات أقرب شخصين لقلبها من أهلها، لكن الله لم يقدر ذلك ولم يَشَأْهُ، حزنت لأجل ذلك كثيرًا, وكنت أنا سعيد؛ فهي كانت لها ما تراه, وأنا ما أريد.

كانت تاخذ راتبي, لا تنفقه, ولكن تدخره, اشترت لي الشبكة قبل العروس، وظلت تدخر؛ لتمكنني من استئجار شقة تليق بعرسي الذي تحلم به.

كنت مرتبطًا بزميلة عمل أردت أن أتزوجها, تعمدت أن تتعرف عليها في رحلة خرجناها مع زملاء العمل, وفي العودة جلست بجوارها, وتعرفت عليها فقط, وقبل أن نصل نادتني وقالت لي:

- انت بينك وبين البنت دي حاجة؟ مينفعش يا ولدي ترتبط غير بحد من قرايبك, ومش حترتبط غير بحد من قرايبك, في الجواز اتجوز اللي تصونك, واللي تصونك لازم تكون من أهلك, وأهلك هما أهلك وعرضك, الأولى منك إنك تستره.

ـ فرددت عليها: انتي حاولتي, سيبيني أحاول.

- فردت: محمد يا ولدي, من الآخر, ماحدش حيعمر بيتك غير حد من أهلك.

لم أيأس, وحاولت كثيرًا, ولأول مرة أصطدم معها، كانت حزينة جدًا, وكنت أيضًا حزينًا, تدخل أخي الأكبر, وأمام إلحاحي وافقت, منكرة وغير راضية, على أن أتولى أنا كل شيء؛ فهي لن تذهب معي, ولن تحضر أي مراسم عرس لي, كنت قد ذهبت لأهلها قبل ذلك وتحدثت معهم، كانت هي بنفسها قد أوصلت للفتاة في جلسة السيارة أنها لا تريدها, بل الأكثر من ذلك, أنها أخبرتها أنني مرتبط بإحدى قريباتي؛ لتقطع أملها في الارتباط, وشعر أهلها أن لي أمًا ترفضها مسبقا؛ فوافقوا بشرط أن تعيش ابنتهم معي بدون أمي, وكان رد فعلي على قولهم صادمًا, أنا من الممكن أن أجد ألف فتاة مثل ابنتهم, لكن لن أجد أمًا غير أمي.

ردي رغم كونه كان موجعًا, لكن استشعر أبوها أن ابنته سوف تكون في عصمة رجل، ولم يرفضني، وقال لي:

_ طب شوف انت حتعمل إيه, قبل ما توافق بشروطها, واللي انت عارف يقينا إني مش حقبلها.

كانت بطريقة ما أوصلت لأهلها أنها ترفض زواجي من ابنتهم, وأنها لن تبارك هذا الزواج أبدًا.

آثر الناس أن لا تبدأ حياة ابنتهم بتلك المشاكل قبل أن تبدأ, وأخبروا ابنتهم أن تنهي علاقتها معي, بل زادوا على ذلك أن أجبروها على ترك العمل؛ حتى لا تراني مجددًا.

أعرفها, وأعرف عنادها, وصبرها على عنادها، فلم تغلبها من قبل الرجال, فهل بعد ذلك تفعلها النساء؟!

وافقت أن أذهب لخطبتها, ومعي أخي, بدونها, ولا أعلم ماذا أعدت من خلفي, اتصلت بي الفتاة قبل ذهابي إليهم, وأخبرتني ألّا أحضر؛ فأهلها يرفضون الموضوع تمامًا، رفضت نصيحتها, وأخذت أخي, وذهبت إليهم, رفضوا حتى أن يفتحوا لنا الباب، وهي في الشرفة تبكي, تطالبني أن أذهب, وهي سوف تتصرف.

عدنا أنا وأخي, تكاد الأرض تبتلعني همًا وكمدًا، ها هي انتصرت حتى على حبيبها، وابنها، وشقيقي مضطربٌ, يضحك مرة, ويحزن مرة, ويهدئ من حزني مرات.

كنا قد أخذنا معنا علبة حلوى, أخفيناها تحت الدرج؛ حتى لا ترى الأميرة الحزينة خزيلنا وانتكاستنا, دخلنا ولم ننطق بكلمة، نظرت إلينا نظرة الظافر المنتصر,وقالت:

- "هاه نقول مبروك"؟

لم نُجِب, ولم نتكلم, لكن كانت عيوننا تشي عن كل ما حدث؛ لأنها يقينًا كانت تعرف ما حدث قبل أن تخبرها أعيننا به.

مضت الليلة, لم أنم, وهي تحاول أن تهدئ من روعي, وتعدني أن الله سيهبني من قلامة ظفرها خيرًا منها ومن أهلها, وقد صدقت أيضًا كعادتها, وككل ما تتنبأ به.

جاء الصباح، ذهبت إلى عملي, لكن كان هناك شئ يحدث لم يدر في خاطري, تركت الفتاة أهلها, وكانت تعرف عنواننا من سجلات العمل ومني، تركتهم وحضرت إلينا, وطرقت الباب, وأخبرتها أنها تريدني, وستقاتل الدنيا من أجلي, وأنها حضرت لتتزوجني اليوم, وتجبر أهلها على واقع لن يستطيعوا تغييره.

أكرمت وفادتها, وأخبرتها أنها تثمن تمسكها بابنها, وأنها لن تستطيع أن تقف في وجه تلك العلاقة مرة أخرى, وبكل ذكائها وعظمتها في آن واحد، قالت لها:

- "بصي يابنتي, نصيحة من أمك, ماينفعش تجّوزي راجل جيتيله لغايه البيت,

حيعايرك بيها طول العمر, هو اللي ييجي ويخطبك وانتي معززة مكرمة,علشان تقعدي كبيرة في نظره طول حياتك, زمان أمك وابوكي قلبهم مخطوف عليكي, وأنا أم، عارفة يعني إيه متعرفيش ضناكي فين؟! إيه اللي حصله، ولا اللي جرالُه, أنا حاخدك

حاوديكي مش لابوكي؛ لانهم ممكن يقتلوكي علشان انت حطيتي راسهم في التراب, انت تقوليلي على حد بيحبك من اخوالك أوديكي ليه، يحميكي وميخلهمش يأذوكي, والأمور تهدى شوية, حاروح أنا بنفسي أخطبك لولدي، يلا بينا يابنتي على بيت خالك".

كان بيت خالها في حي حلوان، أخذتها وذهبت، سلمتها له ولم تعقب، وأوصته أن يحافظ عليها ويحميها, شكرها الرجل الذي تعجب من شهامتها ومرؤتها, وأخبرها أنه سوف يفعل ما في وسعه؛ لإنهاء هذا الأمر, لتخبره أن كل شيء بإرادة الله وحده

لم تصل لبيتها قبل أن تتصل بأبيها وأمها, وكان معها رقمهم ليرد الرجل الذي جن جنونه على ابنته:

- هي فين؟ وعملت ايه في نفسها؟

لتخبره الأميرة الحزينة بما هو أشد صفعًا مما فعل معي، وأشد صفعًا مما فعلت ابنته، هي كعادتها لا تترك ثأرها ولا ثأر ابنها الذي نال من المهانة ما أوجعها, رغم أن ما فعله معه كانت تريده, بل دبرت له, لكن لم تنسَ أن ذلك الفتى هو حبيبها، لا أحد يهينه أو يوجعه.

قالت للرجل في كلمتين كانتا أوقع عليه من ضربة سيف, بل تمنّى أن ينطبق عليه الأخشبين, قالت له:

- "انا والدة محمد ياحاج, اللي مفتحتوش الباب ليه, بنتك جات لينا علشان تتجوز إبني من وراكوا, أنا أخدتها ووديتها لخالها في حلوان, البنت لو عملتلولها حاجه حاوديكوا في داهية, بنتكم رجعت زي ما جت بكرامتها، وبشرفها, خلوا بالكوا من بنتكم، وأحب أقولك حاجة، ابني ميتنفعش أبدًا يجّوز بنت سابت أهلها علشان حبيبها؛ لان بنته منها حتعملها في يوم من الأيام, ربي بنتك ياحاج من جديد".

ما كل ذاك الجبروت يا أميرة؟! ثأرها هو ثارها, وإرادتها هي إرادتها, وقدرتها على فعل ما تريد، كما هي لم تتغير, ولم تفتر يومًا ما.

أحزنني ما فعلت, وكانت أيضًا يحزنها حزني, لكن هي ترى ما لا أراه يقينًا، بُعد نظرها كان يفوق الوصف، كانت ترى الأشياء جميعها؛ ماضيها, وحاضرها, ومستقبلها, كانت تري كل شيء.

ملّت الأحزان من صبرها, وقررت أن تنال منها هذه المرة منالًا مختلفًا موجعًا قاتلًا, ينهي عنادها وجلدها وصبرها, يجهز عليها, ولاتقوم لها من بعده قائمة.

لم يمر شهر على ما حدث, وكان الحزن يشحب وجهها؛ فهي ما تزال تراني حزينًا جرّاء ما فَعَلَتْ, وهي التي تعرف يقينًا أين يكمن الخير لي، وفي ليلة تجمعنا وأنا شارد في فتاتي، وهي شاردة في فتاها, تنظر لي, ولأول مرة أرى الخوف في عينيها والشحوب في وجهها وقالت:

ـ محمد، انا فيه نغزة في صدري وفيه حاجة زي الحمصة فيه.

أرعبني ما قالت, قفزت من جلستي هلعًا عليها, متقدما نحوها,

ـ فين يا امّا, في صدرك من جوه ولا بره؟

قالت لي: من بره.

استجمعت قوتي، وتماسكت, وأخبرتها أنه ربما يكون لبنًا قديمًا متحجرًا، غدًا نذهب للطبيب يطمئننا, خيرًا إن شاء الله يا أماه.

جلست بجوارها, احتضنتها, سال دمعي فوق كتفها, لم أغادر حضنها وقتًا طويلًا، ربما ما يؤلمها ينتقل من صدرها لصدري, أخشى عليها, ماذا لو كان ذلك ما يجول بخاطري, كانت تعرف فيمَ أفكر, همى دمعها, شعرت به ينساب على جبيني، شعرت تلك المرة أنها لن تقاوم, شعرت أن القادم جيش من الآلام لن تنتصر عليه، شعرت أنه أول طريق النهاية، لكن لا تعنيها النهاية في شيء, كل ما يعنيها أنا, لمن ستتركني؟ ومن سيهتم بي؟ من سيوقظني؟ ومن سيطعمني؟ ومن سيحميني؟

كانت عيناها تخبرني بكل ذلك، وكانت عيني تخبر عن ضعفي، وعن حبي، وعن ألم بداخلي، يخبرني, ويخبرها أننا اليوم اقتربنا من الفراق, بدى الرحيل يشرق, والآلام تأتي تنعق، كلانا عرف من رفيقه كل شيء.

نمت ليلتي, دمعي يهمي، أكتم صوتي، أتظاهر بالثبات العميق, أخشى عليها, قلبي يخبرني أن هناك أمرًا محزنًا مع هذا النهد الذي روي وجسدي بالحنين, هذا الصدر الذي ضمني كثيرًا, كم أسعدني، وكم من الحب فيه نهلت, ها هي لأول مرة تمرض, وهل حين تمرض، تمرض بتلك البلاء الذي يهاجم خاطري, أعود

لعقلي، لا ليس هو, ولو كان هو، هي قادرة على الانتصار عليه، هي لم تهزم أبدًا, ولن يهزمها شيء أبدًا.

أخدتها في الصباح إلى المشفى, وكلي آمال في الله, وكثير من الخواطر في ذهني تترى, يقتلني الانتظار, تمر اللحظات ثقيلة, حينا يحدوها الأمل, وحينا عابثة.

دخلنا إلى الطبيب, أخبرته بما فيها, طلب كشف صدرها, أوجعني مطلبه؛ فهذا الصدر لم يرَه من قبل إلا عين ثغري، كانت أول آلامي؛ فتلك الأميرة جسدها لي وحدي, وذاك الصدر كان لي وحدي؛ فكيف يجرؤ أحد أن يلمسه, الرجل زاد حزني, كان الخجل يقتلها, والحزن يقتلني, استشعر الرجل ذلك, طلب منها أن توصد أزرار عبائتها, وعاد لمكتبه, يمسك دفتره, يكتب شيئًا, أسعدني ذلك يقينًا,-كيسًا دهنيًا-, سيكتب له دواءً, نظرت في الورقة, الرجل يكتب بالعربية, إنه لا يكتب دواءً, بل توصية, أنهى ما كتب, رفع عينه لنا, أخبرنا أنه سوف يحيلنا إلى الجراحة؛ لأخذ عينة من صدرها, هناك شيئ يريد الاطمئنان عليه, لم يخبرنا به, لكن أنا أعرفه, وهي تعرفه, أظلمت الدنيا في وجهي, لم أعرف باب الطبيب من نافذته, تعثرت قدمي, مدت إليّ الأميرة يدها, تسندني حتى في أصعب ما هي فيه, لا تتورع أن تكون سندي وحصني, خرجنا, تهدئ من روعي, تخبرني أنها بخير, وستكون بخير, وستحيا, وتزوجني, وتزوج أبنائي, ويجب عليّ ألّا أحزن, ولا أخشع, وأن أسأل لها الله السلامة والخير.

حاولت أن أستجمع شتاتي, وأخفي حزني وآلامي, كانت شاردة شيئًا ما, ثم تستفيق من شرودها لأجلي, لم تكن تفكر في نفسها, ولا كيف ستؤول الدنيا بها, كانت تفكر في ابنها, وما يمكن أن تفعله الأيام به, كنت كل فكرها, في وقت لا يفكر المرء إلا في نفسه, -رحمها الله-.

ذهبنا لطبيب الجراحة, حدد موعدًا لجراحته، دخلنا, كنت أنا وهي ليس معنا إلا الله، أحزنني كثيرًا أنني لم أدخل معها, كنت أتمنى أن يكون مشرطهة في قلبي وليس صدرها, كنت أتمنى الموت بدلًا عنها, كنت أتمنى كل ما تعرفون, وما لا تعرفون.

خرجت بعد قليل من الزمن, أعطاني الطبيب قنينة صغيرة بها بعض الأليلاف الوردية, كرهت هذا اللون من يومها, ووجهني لمعمل بعينه؛ لأعطيها لهم, وأعود حتى تفيق أمي, وآخذها ونذهب.

اطمئننت عليها, قبلتها, احتضنتها دون أن ألمس صدرها, كانت ما زالت عن الوعي غائبة, يومًا ما فعلت معي ذلك, كنت غائبًا عن الوعي؛ فاحتضنتني, واليوم أنا أردها لها.

أخذت قنينتي, أنظر لما بها, أستحلفه ألّا يكون ما في خاطري, أحكي لتلك الأليف الوردية عنها, ماذا فعل صدرها معي, وماذا فعل نهدها معي, وماذا فعل قلبها معي, كنت أتوسل إليه أن يرحمها, إن كان ما في خاطري يغير من خصائصه فلا يكن كما أظن وأخشى, ما أسوأ أن تتحدث مع خلية صماء, تجردت من الحب والعطف, وما لا يسمع ولا يرى.

وصلت إلى المعمل, أعطيتها لهم, طلبوا مني الحضور بعد يومين؛ لاستلام نتيجتها, كانا يومين بالعمر كله, ما أطولهما, كانت الثانية بدهر, والدقيقة بعمر الأرض, والساعة بطول الزمن منذ أن أوجد الله الخليقة.

عدت إليها, استندت فوق كتفي, أخذتها, وعدنا, لم تقل الآه أبدًا, ها هي كعادتها, يجب أن تظل قوية, ليس من أجلها, ولكن من أجلي.

كنت أداعبها, أخفف من آلامها, وهي تخفي عني ما يوجعها, تتظاهر بالقوة التي فيها عهدتها, حقًا, كانت امرأة من الفولاذ, لا شيء يكسرها, ولا شيء يوهنها.

مرّا كجبلين مطبقين عليّ وعليها, خرجت من عملي إلى المعمل؛ لأستلم النتيجة, وأنا أعلم مسبقًا, وهي تعلم أن الأمر ليس بخير, لكن كان ينتابني بين حين وآخر بعض بصيص من الأمل عسى الله أن ينجيها بمفازة منه, لأجلي ولأجل ما فعلت معي, أريدها أن تفرح مرة في العمر, لا أريد أن تحيا هكذا حزينة متألمة طيلة عمرها, ها أنا ذا سأرد لها ما فعلت معي, سأسعدها كما أسعدتني, وأبرّها كما أبرّتني, دخلت إلى المعمل عَدْوًا, كنت أجري في الشوارع, وأقفز من مواصلة أوقفتها الإشارات؛ لأستقلّ غيرها مما يسير, دخلت على الموظف, استلمتها, دخلت إلى الطبيب؛ ليخبرني النتيجة, قال لي: "سوف يخبرك الطبيب فعرفت النتيجة فورًا"

لكن ما زال يراودني الأمل, أخبرته أنني لن أخرج من مكتبة قبل أن أعرف, لم يجد الرجل بدًا, وبعد مقدمة يهدئ فيها من

روعي لم أسمع منها شيء, كانت بين كلماته لفظًا ما كنت أود سماعه أبدًا, يتقلب دومًا في ذهني, كانت المقولة التي سمعتها فقط من ديباجته هي: "سرطان ثدي".

تركته وهو يستطرد في شرحه ونصحه, وأن الأمر بسيط, وسوف ينتهي بشيء من الاستئصال والجراحة, قال الرجل أشياءًا كثيرة لم أسمع منها إلا فجيعة قولته, خرجت من عنده لا أعرف رأسي من قدمي, ولا يميني من يساري, ولا أمامي من خلفي, لا أعرف أين الباب يكون, وهل عليّ أن أصعد الدرج أم أنزله, ولو خرجت في أي الأحياء أسكن, ولا كيف سأصل, وأنا الذي لا يرى شيئًا أو حتى يسمع, خرجت وفي ذهني سؤال واحد لا شيء غيره, كيف سأخبرها بما حدث؟ وما سيحدث؟ وبم ابتُلِيَت؟ وكيف ستشفى وتبر؟ كانت قدماي خائرة تلتصق بالأرض, أقدم إحداها, وأعيدها مرة ثانية للأخرى, لا أعلم كيف وصلت إلى الشارع, وكيف خرجت, ولا من أين أتيت, وأين كنت, وكيف سأعود, وأسير ولا أعلم أين وجهتي, تصطدم رأسي بفروع الأشجار, وتنزلق قدماي من على الأرصفة, أخطو خطوة, وأعود لبدئها, لا أريد العودة لها, فبأي شيء سأخبرها؟ وماذا سوف أقول لها؟!

يقينًا, خرجت من المعمل في السادسة, وصلت الثانية عشرة, سيرًا على الأقدام, وكلما اقتربت التصقت قدمي بالأرض أكثر فأكثر, اقتربت كثيرا من البيت, لينقذني ربي, وجدت شقيقها, الخال الحبيب "بهاء", ينتظرني, وكان قد بلغه ماحدث معها ومعي؛ فحضر ليمكث مع شقيقته, ويطمئن معي, ماذا سوف تفعل أمي؟

وجدته في الشارع ينتظرني, ولم أنتظره ليطمئن على أمي حتى ألقيت نفسي بين ذراعيه باكيًا, والرجل يربت على ظهري, ويطمئنني؛ فلقد أخبره دمعي عما يريد معرفته -حفظه الله-.

دخلنا, لم نبذل جهدًا في إخبارها, كانت ملامحنا تحكي كل شيء, وكانت هي تعرف كل شيء, ولم تكلفنا عناء إخبارها؛ فلقد أخبرتنا أيضًا عن كل شيء.

ظهرت متماسكة, قوية, ذلك الدمع المتحجر في مقلتيها فضح حزنها وألمها, ليس على ما هي فيه, ولكن على ما فيه يقينًا فلذة كبدها وحبيبها.

قالـــت: مـــاتزعلش يـــا محمـــد, الـــدكتور حيعملـــي عمليـــة, وحـــابقي زي الفل, وأرادت أن تخبرني وشقيقها أن الأمر هيّن عليها؛ فقالت:

- "أنـــا مـــش حازعـــل علـــى الاستئصـــال، أنـــا حازعـــل أحـــط البـــوك بتاع الفلوس فين",

ما هذا؟ وماذا تقولين؟ وكيف نطقت؟ أي قوة تدّعين؟

ناهيـــك عـــن أي شـــيء, وكـــل شـــيء, أنـــت تتحـــدثين عـــن فقـــد، تفقـــد فيـــه المـــرأة تســـعة أعشـــار أنوثتهـــا, هـــل مـــن أجـــل أن تخرجينـــي ممـــا أنـــا فيـــه تقـــولين مـــا يشـــطرني إلـــى نصـــفين, بـــل أربـــع, بـــل يـــذيب جســـدي كمـــن ألقوه في زيت يغلي؟!

مـــن تكـــونين؟ ومـــاذا تقـــولين؟ ومـــن أي أنـــواع الألمـــاس صُـــنع تحملـــك وصبرك؟

أعلـــم أنـــك جريحـــة لأول مـــرة, وخائفـــة لأول مـــرة, وحزينـــة لأول مـــرة, أعلم كل شيء,

لكن أعلم أيضًا أنك لأجلي تفعلين كل شيء.

انتشـــر الخبـــر, واجتمـــع أحبتهـــا مـــن الريـــف والحضـــر, ولـــم يصـــبح الأمـــر ســـرًا بيننـــا, ولكـــن عرفـــه الجميـــع؛ فحـــزن عليهـــا حتـــى الـــريح, والمطـــر, والعصافير كفت عن الدوح فوق الشجر, -رحمك الله-.

أخـــذتها إلـــى الطبيـــب؛ ليجـــري جراحـــة كبيـــرة لهـــا, الحمـــد لله، كانـــت الأميـــرة قـــد ادخـــرت لـــي مبلغًـــا مـــن أجـــل زواجـــي, يكفـــي تكلفتهـــا, كـــان يعـــز عليهـــا أن أفقـــده, كنـــت اشـــتريت لهـــا قرطًـــا جديـــدًا, وعقـــدًا ذهبيًـــا, كانت ترفع خمارها لصديقاتها وقريباتها, تخبرهم:

_ "محمـــد" ابنـــي اشـــتراهملي, محمـــد كبـــر وبقـــى راجـــل, واهـــو بيشتريللي دهب، أنا قبلته منه لكن حابيعه لما أجوزه.

وكأنهم استكثروا على صدرها عقدها, ولم يتمنوا أن يفرطه عنها الزمن, بل انفرط العقد وصدرها نفسه معه.

تقدم خالي الحبيب شقيقها "بهاء"؛ لتحمل تكلفة الجراحة عني - حفظه الله -, فأخبرته أنني أملك المال، ودعوت له "أكرمك الله", يكفيني وقوفك بجواري,

"اللي خلف ما ماتش"

كانت أيامًا يصعب وصفها, قبل الجراحة وبعدها, اجتمعت الدنيا لأجلها, جاء إليها أيضًا "تاج" شقيقها الأكبر, كان رغم تهوره أحيانًا معها, لكن كان أيضًا يحبها, بكى عليها بكاءً صادقًا, كان يبكيها ويبكيني, كانت عينه تهمي, وكأنه يعتذر لها أنه يومًا ما قد جرحها أو صدمها, لقد أبدى الرجل معها حبًا وخوفًا وحزنًا ما كفر عنه, وما أثلج به صدري وصدرها - حفظه الله -.

والشيء بالشيء يذكر, لن أنسى سيدة عظيمة وقفت معها ومعي, كانت تدعى "أم أحمد", "سامية" شقيقة زوجة أخي, قضت معها عشرة أيام في المشفى, تنام على البلاط, تحملها, وتمرضها, إذ لم يكن مسموح أن يبقى الرجال في غرفة المرضى، تحملت سامية معي أيامًا عصيبة, لن تنسيني الأيام ذكرها, -رحمها الله-, وجعل ما فعلت معي في ميزان حسناتها.

وقف معي كل أقاربها, وإخوتها, ومعارفها, وأكثرهم يقينًا الخال "تاج", و"بهاء", والخال "رسلي" ابن عمومتها, أيضًا كان معي أخَوايَ؛ "أحمد", و"أيمن", وأهلي أمهما - حفظهم الله -.

مرت أيام صعبة, كنت أتهرب من أمن المشفى, وأمكث في دورات المياه حتى ينتهوا من إخراج كل من في المشفى, وأبحث

عن مكان أنام فيه, أتسلل ليلًا, أذهب لغرفتها, أطمئن عليها؛ حتى لاتذهب برهة عن عيني, فنحن لم نفترق أبدًا.

خرجت أمي بعد أن فقدت أعز ما تملك, امرأة راضية قانعة, لا يحزنها إلا حزني, وما أذهب مرضها مما ادخرته لابنها, يقينًا, لم تكن كل أموال الدنيا تعنيني, بل كنت مستعدًا ان أدفع عمري كله من أجلها, بدأ جرحها في الالتئام مع ما فقدته من كيانها وجسدها, وبدأ كل من عرفها يرتبط بها أكثر وأكثر, ولكن هي تعلم يقينًا أن ليس لهذا المعلون أمان, ربما ما زال يستشري في جسدها النقي, وهو الذي لايرحم, ولا بالخير أبدًا يأتي. فهل كان هذا الذي يشغلها؟

كلا, كان يشغلها شئ واحد، كانت تستشعر أن العمر ها هو اقتربت كثيرًا نهايته, سمعتها مرة تقول لضيفة لديها خلسة:

- أنا كل اللي باقيلي سنة بالكتير, نفسي أسيب محمد مجوز ومعاه واحدة ترعاه, محمد مبيعرفش يعمل لنفسه كباية شاي, ومش حيعرف يروح فين ولا ييجي منين.

كانت صادقة, لكن القدر أمهلها عامين وليس عامًا واحدًا, لم تكمل بعدها شهرًا واحدًا, وكانت لا تحدثني إلا في شيء واحد:

- تجّوز بنت خالك فلان، ولا بنت خالتك فلانة؟

_ يامّا انا مش عاوز اتجوز, صحتك الأهم, خلينا بس نشوف حنعمل إيه بعد العملية.

كانت ما زالت محتفظة بالمصوغات التي ادخرت واشترتها لي، مر شهر, وطلبت منها أن أصطحبها للتنزه لمدة يومين بمدينة الأسكندرية, أعجبتها الفكرة، ولكن قالت:

- بلاش اسكندرية، نروح حتة تاني.

ـ أي مكان تحبي تروحيه نروحه.

- كفر الشيخ.

ـ كفر الشيخ؟ دي مش ساحلية ولا متنزه ولا فيها حاجة.

- لا أنا حاروح أسلم على ولاد عمي فيها.

ـ ولاد عمك مين دول؟

- اللي حكيت لك عليهم زمان.

ـ آه مانا عارف، وانتي تعرفيهم منين؟ وإيه المناسبة؟

- خالك "تاج" اتعرف عليهم، واتصل واحد من ولادهم اطمن عليا.

ـ طيب ده مبرر إننا نروح نتفسح عند ناس عمرنا ماشفناهم, احنا رايحين نغير جو من اللي احنا فيه, مش نعمل صداقات جديدة.

- مش صداقات دول ولاد عمي وبنات عمي.

ـ اااااااه.

استشعرت أنها تخبئ شيئًا, لن تبوح به, لكن ما دامت ذكرت بنات فهي تعد لي شيئًا في عقلها أعرفه جيدًا، تريدني أن أتزوج قريبتها أيضًا.

الفصل الثاني عشر

" الرحيـــــل"

كانت حالتها تمنعني أن أعترض على شيء, أريدها أن تسعد بأي طريقة كانت, ولكن تلك المدينة لا أعرفها, ولم أذهب إليها يومًا ما، ولا أعرف كيف الطريق إليها, وأبناء عمومتها يمكثون في قرية من قراها, لاتعرف عنهم غير أسمائهم واسم قريتهم، فقط لا غير، ماذا سنفعل؟ هل لو قدر الله أن نصلها هل سنجدهم فيها أم غادروها؟، ناقشت ذلك معها, وهي تهون كل شيء, لم يكن لي بدٌ عن الموافقة؛ إكرامًا لرغبتها, ولا أنكر. بعض من الفضول, أعرفهم وأعرف بلدهم, وأفعل شيئًا لم يفعله أسلافي, ويقينًا أستكشف ما تعده لي الأميرة الحزينة, وما تخفيه في عقلها.

سألنا عن الطريق والمواصلة, وصلنا للمدينة, سألنا عن القرية, كان لزاما علينا أن نركب لقرية أخرى, ثم منها لتلك القرية, كانت السيارة تسير في طريقها, ولم يكن معظم الوقت معبدًا, كان شيئًا جديدًا لم أعهده, الخضرة على امتداد البصر، الناس بسطاء طيبون, كنت معتادًا في قريتي أن أرى بعضًا من الخضرة, وكانت الصحراء والجبال هي التي على امتداد البصر.

وصلنا بفضل من الله وتوفيقه إلى القرية، كان الطريق طويلًا ومجهدًا, لكن شغفي إلى منتهاه كان يخفف عني طوله وتعبه, نزلنا من السيارة، سألنا أول شخص قابلناه على تلك الأسماء التي نعرفها، أشار لنا على بيت نقف أمامه,

وقال: ده بيت الحاجة ثريا, واحدة من اللي انتوا بتدوروا عليهم.

وليكمل خدمته، ناداها باسم ابنها؛ لتخرج علينا من بابه سيدة في عمر أمي، لا تختلفان عن بعضهما شيئًا في شكل, أو لون أو حجم, أو شَبَه، أبهرني ما رأيت, اقتربت من أمي اتحسسها, لا أدري إن كانت هي أم تلك! عرفت السيدة من وجهها, إنها يقينًا ابنه عمها, التي اتصلت بها منذ يومين، وأخبرتها أنها قادمة إليها لتعرفها، وتتعرف على أهلها في تلك القرية والمحافظة, استقبلتنا السيدة على أحسن ما يكون الاستقبال, رحبت بنا, وأحضرت جميع إخوتها؛ ليعرفوا ابنة عمهم، التي قطعت من أجل رؤيتهم كل هذه الأميال, وتكبدت مشقة السفر.

كنت أنظر في الوجوه, وأنتظر أن تدخل فتاة من بينهم, أمي تعرف عنها شيئًا, وطال الانتظار، هذه متزوجة, وتلك مخطوبة، ربما أكون قد ظلمتها, لكن أنا أعرف حدسي, هناك من لم يأتِ, هناك التي قدمت من أجله.

اتجهت إلى السيدة التي -سبق ذكرها في أول الرواية- وكانت ابنة "سلمان" الذي ترك أبناء عمومته, وعاد لأبيه بعدما دبروا له حديث الإفك, وتزوج, وأنجب طفلة ومات.

كانت تلك هي الطفلة كبرت, وتزوجت, وأنجبت, ولكن زوجها هو الذي مات.

نظرت إليها, وفتحت معها حديثًا عن أعمام أمي جميعهم, من أنجبوا؟ وأين يمكثون؟ فأخبرتني السيدة: فلان, وفلان، وتزوج فلان من فلانة، وفلانة من فلان، وأخيرًا قالت: فلانة لم تتزوج بعد, قلت في نفسي لها كفى, هذه التي أحضرتني أمي لأجلها.

أكملت حديثي: وهل هذه الفتاة تسكن في مكان آخر؟

فرفعت السيدة عينها, وكأنها تريد أن تقرأ في وجهي عن سبب اهتمامي, لأدرك نظرتها, وأبعدها عن عيني, وأقول لها: "أنت جميلة يا خالتي, وشكل أمي بالضبط", وأشتت فكرها, وأنجح فيما أردت.

كانت كل العائلة تحمل صفات كثيرة من الذكاء.

وبينما أنا وما فيه, طرق الباب, ويفتح ابنها الأكبر، ويعود للغرفة متأبطًا فتاة تشبه القمر، ملامحها فيها كثير من دم الأميرة، يكسوها شموخ في أنفها, وكبرياء في جبهتها, وامتشاق في قدها، كان وجهها وملامحها تشبه أميرات القرون الوسطى, لا ينقصها سوى التنورة المنتفخة, والصدرية الضيقة, وتاج الأميرات فوق رأسها, أبهرتني, لا أنكر، رحبت بأمي, ورحبت بي, ربما كانت تقول شقيقتها أختي فلانة, أنا لم أكن أسمع شيئًا, أنا بصري مأخوذ بها, وقلبي ينبض خوفًا, لا أعلم, وعقلي يفكر في الأميرة, وكيدها اللذيذ معي.

آآآه، ويحك أمي, "وما تعدي وما تبدي, وما أكثر ما تخفي"

أشحت بناظري عن الفتاة لأمي, أرقب عينها, أشاهد فعلها ورد فعلها، ابتسامة عريضة تملأ وجهها, عرفت تلك الابتسامة, ابتسامة ظفرها, تقلب عينها فتاتها من أدناها لأقصاها، حينها عرفت لماذا أنا هنا.

عدت للفتاة مرة أخرى, ما زلت منبهرًا بجاذبيتها، بتلك العزة في أنفها, كانت تخلتس -على استحياء- نظراتها, تعبث في أطراف

خصلتها التي ربما تجلس عليها, وتصل حتى قدميها, كانت أطراف شعرها تضاهي طولها واقفةً، كانت تستشعر أن شيئًا ما سيحدث لها معي، وكنت يقينًا أعرف أنها لي, شئت أم أبيت.

لا أنكر، جذبتني إليها انجذابًا, لا أعرف كيف حدث، ولا من أين أتى، كانت الأميرة ترقبها مرة, وترقبني مرة, وتفعل معنا شقيقتها نفس الشيء, تتعطب مرة, وتتحدث مرة.

لا أنكر، أنستني الفتاة من عرفت، ومن أحببت، ومن عشقت؛ فهذه المرة تختلف الأمور عما سبقها تمامًا في كل شيء.

أتى المساء, والفتاة غادرت, ثم عادت, والجميع يسهر معنا, يرحب بنا, يكرم وفادتنا, وأنا ما زلت أفكر فيها، وكيف لهذا الحسن في تلك القرية أن يهزني, وأنا الذي لا تهزه أنثى أبدًا.

كنت ما زلت مدلاًلا, أفتح أزرار قميصي، أرتدي سلسلة ذهبية, كان شكلي لا ينم عن رجل يعتمد عليه، لكن كان بداخلي آلاف الرجال.

كنت أتمنى النوم، وأتمنى أن ينتهي هذا السامر؛ لأدخل لأي مكان أنام فيه، في منتصف الليل, وقد أخذ مني التعب ما أخذه، أدخلونا أنا وأمي في غرفة لننام فيها, وما أن أغلقت علينا المضيفة غرفتنا, وها أنا ذا سوف أنام, قبل أن تغمض عيني، التفتت الأميرة الحزينة نحوي, ودار هذا الحوار بيننا:

- محمد يا ولدي إيه رأيك في البنية القمر دي؟

ـ أيوة كده، طلعي اللي عندك كله، انتي جايبانا هنا عشانها، صح؟

- آه عندك مانع؟ خالك "تاج" قال لي عليها.

ـ طب ليه مقولتيليش في مصر؟!

- مش لما أطمن أنا الأول.

ـ طب انتي عاوزه إيه دلوقت؟

- نتوكل على الله يا ولدي وناخدها.

ـ نعم؟! مش كل حاجة تحطيها في دماغك تنفذيها.

- يـــا ولـــدي ماحـــدش يعـــرف مصـــلحتك قـــدي, والبنيـــة جميلـــة ومتربيـــة ومـــن دمـــك ولحمـــك, حتشـــيلك العمـــر كلـــه، مـــش حتلاقـــي ضفرها.

ـ إيه ده كله يا عم؟! ده كل اللي قعدتيه معاها ساعتين!

- مـــا انـــت عـــارف أمـــك يـــا واد, تـــبص فـــي عينـــين الواحـــد بـــس تقولـــك على كل حاجة.

ـ طب تعرفي تنامي يا أمّا؟! أنا مش مجوز.

"وفي داخلي كنت أتمنى أن تُلِحَّ عليّ أكثر وأكثر"

- مش نايمة يا واد بطني غير لما تقولي تمام.

ـ تمام مين ياعم؟! ده جواز, مش أكلة فسيخ.

- بص, من الآخر حتجوزها يعني حتجوزها.

ـــ يـــا عـــم نـــام, دي البـــت كانـــت بتبصـــلي مـــن فـــوق لتحـــت, ومـــن جواهـــا عينيهـــا بتقـــول إيـــه الـــواد الفرفـــور ده؟! انـــت تعقـــدوا 70 ســـنة مـــاتعرفوش بعض, وأول ماتتعرفوا تعملي معاهم مشكله تاني يوم؟

- مالكش صالح، أنا حتصرف.

ـ ياعم عاوز أناااااام.

- مش حتنام غير لما تقول لي موافق.

ـ يعني لو وافقت، حتسيبيني أنام؟

- آه.

ـ تمام موافق.

وســـحبت غطـــائي فـــوق وجهـــي, مبـــتهلًا إلـــى الله أن تفعـــل ذلـــك, وأن يوفقها الله, ولم أتخيل أنها لن يثنيها عما أرادت شئ.

اســـتيقظت فـــي الصـــباح، وقبـــل أن أغســـل وجهـــي، وهـــي تجلـــس مـــع ابنـــة عمها، نادت عليّ:

- محمـــد يـــا ولـــدي, أنـــا كلمـــت لـــك خالتـــك فـــي طلبـــك بتـــاع امبـــارح اللي طلبته مني؛

إنك تجوز فلانة, وخالتك قالت إنها ماعندهاش مانع, وحتكلمها وتكلم اخواتها وترد علينا خلال أسبوع.

برغم دهشتي وابتسامتي وعجبي منها، لا أنكر أن قولها أسعدني كثيرًا جدًا.

تبسمت, ولم أنطق بكلمة, وأكملت طريقي لأغسل وجهي, وعندما عدت, طلبوا مني أن أفطر قبل أن نرحل.

ما أقواك في كل ما تريدين سيدتي الأميرة، تريد أن تخرجنا من هنا؛ كي لا أتمكن من فعل شيء.

ونحن في الطريق, ما زلت متعجبًا من فعلها.، ولا أنكر أنني كنت أتمنى أن تقبلني الفتاة زوجًا؛ فلقد كنت أرقب في ما اختلست من نظراتها أنها تراني مدللًا, ولا أصلح كرجل يعتمد عليه, وملامحها تقول أنها لا تريد رجلًا يطيل شعره، ويلف سلسلة حول عنقه.

ظللنا في صمت طيلة الطريق؛ فكلانا يفهم ما يخبئه الآخر, ولا يود الحديث فيه؛ فيكشف ستره.

لعلكم تسألون: وأين عروسك التي لم يمر على الحديث عنها لشهرين على الأكثر, وكل تلك القصة من العشق والهوى؟!

لقد تغير فيها كل شيء, بعد أن علمت مني أنني أنفقت كل ما أملك من أجل أمي؛

فتغير لدي أيضًا كل شيء، وانتابني شعور أن الأيام أثبتت لي صدق حس أمي.

لم أُطِق الانتظار، واتصلت بشقيقتها قبل الموعد, وكان قد حدث شئ من الألفة بيننا من أول مرة رأيتها فيها؛ فلقد أحببتها عندما رأيتها؛ لأنها كانت تشبه تمامًا من أحبها, ووعدتني أن تنهي الأمر لصالحي, وكانت تلك المكالمة في صالحي؛ لأن الفتاة أيقنت أن هذا طلبي, وليس طلب أمي.

مر أسبوع, وتمت الموافقة, وأخذت أمي وشقيقي الأكبر لخطبتها, واتفقنا, ولم يمر شهر حتى احتفلنا بخطبتنا, وأصبحت لي -لأول مرة- عروس, سوف يأتي يوم وتكون زوجتي.

لم تبدأ تلك الخطبة إلا وقد أرسل الله عليّ رزقه من كل صوب, وكأنه -تبارك وتعالى- يبارك عرسنا, ويرزقني؛ من أجل إتمامه.

لا أملك بعد خطبتها إلا "الشبكة", ولكن تيسّر كل شيء, الشقة الجديدة, والمتاع, والمال، وقبل مرور العام, كانت العروس الجميلة معي زوجة وسندًا.

لكن هل تقبل الأيام دوام فرحها على الأميرة الحزينة؟!

عاد المرض الملعون يستشري في جسدها الطاهر, وكنت أعطيها كل راتبي؛ لتتمكن من أخذ العلاج الكيماوي شهريًا, كنت لم أكمل ثمن متاعي, وكنت مدينًا لصاحب المعرض, وكنت قد وقّعت له على كثير من "الكمبيالات", كانت تأخذ مني المال, وبدلًا من أن تدفعه للجلسات, كانت تسدد عني ما أدين به للرجل, ومر ثلاثة أشهر, وذهبت للرجل أعتذر له, وأخبره عما أنا فيه, ليقول لي الرجل:

_ الحاجة بتجيب قيمة الكمبيالة كل شهر, ولا اتأخرت أبدًا, لكن يا ولدي من النهارده مش حاخد منك اقساط "حتى يحدث الله منه أمرًا".

رجعت إليها معاتبًا: ماذا فعلت؟! وأي أنواع الانتحار اخترت؟! هذه حياتك أهم من كل شيء, لتخبرني: وأنت أهم من حياتي نفسها.

أي عطاء أعطيتِ؟ وأي بذل بذلتِ؟ وأي كرامة أكرمتِ؟ ومن أي البشر خلقتِ؟

لم تكتفي الأيام بذلك، بل حرمتها من شيء ظلت تحلم به، في كل لحظة أن ترى ذرية لي قبل موتها, لكن حتى الذرية أبت أن تهبها ما تربو إليه وما تريد.

وها هو قد تمكن المرض اللعين من كل جسدها الطاهر, تركت الدنيا وما فيها من أجلها, وكما فعلت مع أبيها، مكثت بجوارها؛ أستنشق عبقها، ألمسها، أقبلها، أحاول أن أخفف آلامها, يحضر طبيب، ويتلوه طبيب, أريد أن أفعل معها شيئًا كما فعلت معي، كانت الآلام تمزقها, والذبول يكسو وجهها, وكانت في كل هذا تدعوا لي.

لن تنسيني الحياة ولا الموت موقفًا يسجله تاريخ الأمومة بأحرف من ذهب حين اشتدت آلامها, وأصبحت أكثر من احتمالها، كنت نائمًا فوق سريرها, تناديني أن أجلسها؛ فأفعل, وقبل أن تكتمل جلستها تقول لي: "نومني يا ابني"، ويتكرر الموقف, وأنا لا أملك

غير الدمع والطاعة, وكي أتمكن من فعل ذلك، كنت أسند ظهري على مسند السرير, وأضعها بين ساقيّ, وظهرها مستند على صدري, وذراعي تحيط بها, كان الأمر أكثر سهولة بهذا الوضع, أن أمددها أو أرفعها, كانت مستندة بظهرها على صدري، وعيني تهمي على خدي, ينساب من خدي إلى جيدها، إلى ظهرها؛ فتشعر به.

ماذا كانت تقول لي وهي المريضة مرض الموت، والمتألمة ألمًا لا يصبر عليه آلاف الرجال؟

ماذا كانت تقول, وهي تعلم خاتمتها التي قد دنت, وهي أقرب إليها من حبل الوريد؟

قالت ما لا يقوله من هو في مثل حالها, ولا في آلامها.

ظنّت أن دموعي تلك التي أذرفها وتسقط فوق جيدها حزنًا مني أنني لا أنجب؛ فقالت نبوءتها الصادقة التي تحققت في ذكرى وفاتها العام التالي, قالت:

- "ماتبكيش يا محمد، ربنا حيديك لحظة ومنتصر"

مرت الأيام ثقيلة, والأميرة تنهار أمام عيني كجبل ينهال فوق رأسي, لا أملك من أمرها, ولا من أمر نفسي شيئًا, تخرج عن وعيها وتعود، والطبيب بلا رحمة يخبرني: "سيأتي قضاء الله"؛ فانتظره, كيف هان عليك قول هذا؟!

إنها الحبيبة, والحبيبة, والحبيبة، كيف تفارق؟!

ومن بعدها أنّى للطبيب أن يُداوي، من بعدها؟

مرت أيام صعبة, شاركتني فيها زوجتي -حفظها الله-, وإخوتي, وزوجة أبي, وأقاربي, وأخوالي, وأناس لا أذكرهم إلا بخير.

صَعُبَ الأمر، وتحشرجت الروح, لتلقى ربها، ظننتها جف حلقها، أحضرت الماء؛ لأسقيها، الماء لا يدخل فاها، أخذ الماء مني أهل الخبرة بالموت وسكرته, والرحيل ووجعه, لم يبالوا حينما أخبروني: ليس ذلك ضيق في صدرها, بل حشرجة الرحيل وغلبته.

ليتني كنت أحتضر بدلًا عنك، وأموت عوضًا عنك، ليتك تبقين وتذهب الدنيا كلها؛ فأنت شمسها التي تشرق، ونورها الذي يضيء, لا قيمة للدنيا بعدك يا أمي.

تركتهم، ودخلت لغرفتي, أتوسل إلى الله ربي: رباه خفف عنها سكرات الموت، كيف أقولها؟! وكيف أدعو بها؟!

دمعي في السجود يهمي، وقلبي يبكي، كيف أدعُو لها بالموت، وهي من كانت تدعوا لي بالحياة، بل إنها قد وهبت لي أكرم ما في الحياة، ما زلت أبكي, ولا أعرف بماذا أبتهل لربي ليعيدها إليها الحياة، أو يخلصها من عذابات الموت ووجعه.

بكيت, وبكيت, وبكيت في سجودي, لأسمع هرجًا في غرفتها، فظننت أن الله قد تقبّل إحدى دعواتي، سمعت زوجتي تقول لهم:

_ ماحدش يقووول له.

عرفت أن قضاء الله قد نفذ، وروحها اعتلت عند بارئها، ظل دمعي وهمي غزيرًا, في سجودي أدعو الله أن يحسن وفادتها, ويكرم شيبتها, ويرزقها الجنة بإذن منه وفضل.

لم يحملني جسدي، ولا قدماي، على النهوض؛ فكيف سأرى الحب مسجى, والعطاء مغطى، والجسد الطاهر الذي كنت أظنه طول العمر سيبقى؟! كيف سأرى حبيبتي وهي لا تراني, ولا تحدثني, ولا تتبسم في وجهي؟!

كان دعاؤها دومًا:

- ربنا يجعل يومك قبل يومي.

لقد قبل الله –تعالى- دعاءك يا أمي, لكن منذ يومك وأنا ميت يحيا.

اجتمعوا في غرفتي ينتظرون إنهاء صلاتي، كانوا يدخلون، يتهامسون، يهرولون، يجيئون, ويذهبون, لا تقلقوا, أعلم أنها فارقتني، وأوجعتني، أعلم أنها النهاية،

نهاية حياتها, وحياتي، أعلم أنه القدر، والعيش بلا أمل, أعلم أنني قد فقدت كل شيء, وكل شيء -رحمها الله -.

هكذا أكملت الأحزان طعانها ولعانها، هكذا فعلت معها كل شيء, وأنهت معها كل شيء, لن تتمكن بعدها من فعل شيء؛ فلقد أجهزت على كل شيء, على من كانت أجمل من كل شيء.

ماتت "الأميرة الحزينة", ولم تترك لي إلا الحب والحزن إرثًا,

ماتت سيدة النساء، وتاج النساء، وأجمل كل النساء,

يرحمك الله أمي، رحمة تليق برحمته, وعفوًا يليق بعفوه, أسأل الله العلي القدير، ألّا يحرمني رفقة معك في الجنة, وأن يجمعني بك عند حوض رسول الله –صلى الله عليه وسلم-.

رَبَّاه، بحق اسمك العظيم، ورحمتك التي وسعت كل شيء, أسألك أن ترحمها، وتبرد قبرها، وتؤنس وحدتها، أسألك باسمك الأعلى أن تظلها بظل عرشك يوم أن تلقاها, ربِّ ابن لها عندك قصرًا في الجنة, واجمعها بحبيبك ونبيك, ولا تحرمني رؤيتها, ورؤيتك, وحبها, وحبك, وقربها, وقربك.

ربِّ إنها عانت من أجلي, ولم أعانِ لأجلها؛ فيارب أسألك بعزك أن تعزها, وتكرمها, وتردها إليك ردًا جميلًا يا الله، ياربَّ كلَّ مستضعف وقوي, وتقي وشقي, اجعلها رفيقة للأنبياء والصديقين بحق لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

تمت بفضل الله، ادعوا لها

محمد عواد

مع تحيات دار الحسيني للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الادارة

عبد القادر الحسيني

المشرف العام

محمد عبد القادر الحسيني

المدير العام

عصام عبد القادر

نائب المدير

حسام الدين عبد القادر الحسيني

الهيئة الاستشارية للدار

الدكتور حسام عقل الدكتور علي جاد الحق

الدكتور لطفي سيد صالح الدكتور بسيم عبد العظيم

الشاعر عادل عبد الموجود